سُورَةُ عَبَسَ

لِأَبِي الحَسَنِ مُحَمَّدِ بنِ حَسَنِ بنِ عَبَاسٍّ

حَفِظَهُ اللّٰهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ عَبَسَ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾

أَسْمَاءُ السُّورَةِ:-

«سُورَةُ عَبَسَ».

سَمَّاهَا ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامُ الْقُرْآنِ»، «سُورَةُ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ».

وَقَالَ الْخَفَاجِيُّ: تُسَمَّى «سُورَةُ الصَّاخَّةِ».

وَقَالَ الْعَيْنِيُّ فِي «شَرْحُ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»: تُسَمَّى «سُورَةُ السَّفَرَةِ».

وَتُسَمَّى «سُورَةُ الْأَعْمَى».

وَكُلُّ ذَلِكَ تَسْمِيَةٌ بِأَلْفَاظٍ وَقَعَتْ فِيهَا لَمْ تَقَعْ فِي غَيْرِهَا مِنَ السُّوَرِ، أَوْ بِصَاحِبِ الْقِصَّةِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ نُزُولِهَا[1].

(١) «مَرَاحُ لَبِيد لِكَشْفِ مَعْنَى الْقُرْآنِ الْمجِيدِ» (٢/ ٦٠٣)، «التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ» (٣٠/ ١٠١)

هَلِ السُّوْرَةُ مَكِّيَّةٌ أَمْ مَدَنِيَّةٌ؟

نَقَلَ ابْنُ عَطِيَّةَ وَابْنُ الْجَوْزِيِّ وَالقُرْطُبِيُّ وَالْطَّاهِرُ بْنُ عَاشُوْرٍ الإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ(١).

سَبَبُ نُزُوْلِ السُّوْرَةِ:-

قَصَّةُ النَّبِيِّ مَعَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ.

تَرْتِيْبُ نُزُوْلِ السُّوْرَةِ:-

عُدَّتْ الرَّابِعَةَ وَالْعِشْرِينَ فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ «وَالنَّجْمِ»، وَقَبْلَ سُورَةِ «الْقَدْرِ»، وَهِيَ أُولَى السُّوَرِ مِنْ أَوَاسِطِ الْمُفَصَّلِ(٢).

أَغْرَاْضُ السُّوْرَةِ: -

تَهْدِفُ السُّوْرَةُ إِلَى تَوْجِيْهِ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَعْوَتِهِ وَتَعَاْمُلِهِ مَعَ أَهْلِ الاِتِّبَاعِ وَأَهْلِ العِنَادِ، وَالتَّذْكِيرِ بِنِعْمَةِ الله عَلَى عِبَادِهِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَيهِمُ، وَالإِشَاْرَةِ إِلَى أَنَّ الاِسْتِغْنَاءَ وَالتَّرَفَ غَالِبًا أَمَارَةُ الإِعْرَاضِ وَعَدَمُ الْقَابِلِيَّةِ وَالتَّهَيُّؤُ لِلْكُفْرِ وَالْفُجُورِ، وَإِلَى أَنَّ الْمَصَائِبَ غَالِبًا أَمَاْرَةٌ لِلطَّهَارَةِ وَالْإِقْبَالِ، واسْتِكَانَةِ الْقُلُوْبِ، وَسُمُوِ النُّفُوْسِ لِشَرِيفِ الْآمَالِ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ فِيهَا أَرْسَخَ كَانَ

(١) «جَمَالُ الْقُرَّاءِ وَكَمَالُ الإِقْرَاءِ» (ص٤٤) «الْمُحَرَّرُ الْوَجِيزُ» (٥/ ٤٣٦) «زَادُ الْمسِيرِ» (٤/ ٣٩٩) «تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ» (١٩/ ٢١١).

(٢) «تَفْسِيرُ اِبْنِ جُزَيٍّ» (٢/ ٤٥٢)، «التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ» (٣٠/ ١٠١).

قَلْبُهُ أَرَقّ وَأَلْطَفَ، فَكَانَ أَخْشَى، فَكَانَ الْإِقْبَالُ عَلَيْهِ أَحَبَّ وَأَوْلَى؛ كَمَا تَلْفِتُ إِلَى الْمُوَازَنَةِ بَيْنَ مَرَاتِبِ الْمصَالِحِ، وَتَقْدِيمِ أَعْلَاهَا، وَفَضْلِ أَهْلِ الدِّينِ وَإِنْ هَانُوا، وَخِسَّةِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَإِنْ زَانُوْا، والْإِشَارَةِ إِلَى اخْتِلَافِ الْحَالِ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ الْمُعْرِضِينَ عَنْ هَدْيِ الْإِسْلَامِ، وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُقْبِلِينَ عَلَى تَتَبُّعِ مَوَاقِعِهِ، وَقَرْنِ ذَلِكَ بِالتَّذْكِيرِ بِإِكْرَامِ الْمُؤْمِنِينَ وَسُمُوِّ دَرَجَتِهِمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، وَالثَّنَاءِ عَلَى الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِهِ لِمَنْ رَغِبَ فِي عِلْمِهِ.

كَمَا تَرْنُوا إِلَى التَّذْكِيرِ بِالْآخِرَةِ وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَحَالِ النَّاسِ فِيهَا، والِاسْتِدْلَالِ عَلَى إِثْبَاتِ الْبَعْثِ، وهُوَ الْأَصْلُ الْأَصِيلُ فِي تَصْمِيمِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنْ دَعْوَةِ الْقُرْآنِ؛ تَوَهُّمًا مِنْهُم بِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى الْمُحَالِ، فَاسْتُدِلَّ عَلَيْهِمْ بِالْخَلْقِ الَّذِي خُلِقَ بِهِ الْإِنْسَانُ، وَاسْتُدِلَّ بَعْدَهُ بِإِخْرَاجِ النَّبَاتِ وَالْأَشْجَارِ مِنْ أَرْضٍ مَيْتَةٍ.

وَهَدَفَتْ أَيْضًا إِلَى الْإِنْذَارِ بِحُلُولِ السَّاعَةِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ أَهْوَالِهَا، وَبِمَا يَعْقُبُهَا مِنْ ثَوَابِ الْمُتَّقِينَ، وَعِقَابِ الْجَاحِدِينَ، والتَّذْكِيرِ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَى الْمُنْكِرِينَ عَسَى أَنْ يَشْكُرُوهُ[1].

(١) «نَظْمُ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الْآيَاتِ وَالسّورِ» (٢١/ ٢٤٩)، «التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ» (٣٠/ ١٠٣)، «التَّفْسِيرُ وَالْبَيَانُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» (٤/ ٢٢٠٣).

مُنَاسَبَةُ السُّورَةِ لِمَا قَبْلَهَا:-

* **الْوَجْهُ الْأَوَّلُ:** جَاءَ فِي كِلْتَا السُّورَتَيْنِ ذِكْرُ فَضْلِ اللهِ عَلَى الْإِنْسَانِ؛ فَفِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ ذَكَرَ فَضْلَهُ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُنَا عَدَّدَ فَضْلَهُ فِي تَنْوِيعِ الثِّمَارِ وَالطَّعَامِ.

* **الْوَجْهُ الثَّانِي:** لَمَّا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ٢٦﴾، قَالَ فِي سُورَةِ عَبَسَ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾؛ فَافْتُتِحَتْ سُورَةُ عَبَسَ بِمِثَالٍ يَكْشِفُ عَنِ الْمَقْصُودِ مِنْ حَالِ أَهْلِ التَّذَكُّرِ وَالْخَشْيَةِ، وَجَمِيلِ الِاعْتِنَاءِ الرَّبَّانِيِّ بِهِمْ، وَأَنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا فِي دُنْيَاهُمْ ذَوِي خُمُولٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُم؛ فَهُمْ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ فِي عِدَادِ مَنِ اخْتَارَهُ لِعِبَادَتِهِ وَأَهَّلَهُ لِطَاعَتِهِ وَإِجَابَةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَعْلَى مَنْزِلَتَه لَدَيْهِ «رُبَّ أَشْعَثٍ أَغْبَرٍ لَا يُؤْبَهُ بِهِ؛ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ».

* **الْوَجْهُ الثَّالِثُ:** أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ تُعَدُّ تَفْصِيلًا لِمَا ذُكِرَ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي خِتَامِ سُورَةِ النَّازِعَاتِ.

* **الْوَجْهُ الرَّابِعُ:** فِي كِلْتَا السُّورَتَيْنِ التَّنْبِيهُ عَلَى أَهَمِّيَّةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى؛ فَفِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ دَعْوَةُ مُوسَى فِرْعَوْنَ، وَهُنَا ذَكَرَ دَعْوَةَ النَّبِيِّ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ[1].

---

(١) «الْبُرْهَانُ فِي تَنَاسُبِ سُوَرِ الْقُرْآنِ» (ص٣٥٦)، «تَفْسِيرُ الْأَلُوسِيِّ، رُوحُ الْمَعَانِي» (١٥/ ٢٤١).

وَلَمَّا كَانَ مُوسَى سَابِقًا لِمُحَمَّدٍ -عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؛ كَانَتْ سُورَةُ النَّازِعَاتِ سَابِقَةً لِسُورَةِ عَبَسَ وَتَوَلَّى.

* **الْوَجْهُ الْخَامِسُ:** قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، وفِي سُورَةِ عَبَسَ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾؛ لأَنَّ الطَّامَّةَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ طَمَمْتُ الْبِئْرَ إِذَا كَبَسْتُهَا، وَسُمِّيَتِ الْقِيَامَةُ بِالطَّامَّةِ؛ لِأَنَّهَا تَكْبِسُ كُلَّ شَيْءٍ وَتُكَسِّرُه، وَسُمِّيَتِ الصَّاخَّةَ، وَالصَّاخَّةُ مِنَ الصَّخِ أَيْ: الصَّوْتِ الشَّدِيدِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ صَوْتِهَا يَجْثُو لَهَا النَّاسُ كَمَا يَنْتَبِهُ النَّائِمُ بِالصَّوْتِ الشَّدِيدِ، وَخُصَّتِ «النَّازِعَاتُ» بِالطَّامَّةِ؛ لِأَنَّ الطَّمَّ قَبْلَ الصَّخِ فَكَانَتِ السَّابِقَةَ، وَخُصَّتْ «عَبَسَ» بِالصَّاخَّةِ؛ لِأَنَّهَا بَعْدَهَا وَهِيَ اللَّاحِقَةُ[1].

وَالطَّامَّةُ تُسْتَعْمَلُ فِي الشَّدِيدَةِ الَّتِي تُنْسَى عِنْدَهَا الشَّدَائِدُ، فَتَطُمُّ عَلَى مَا تَقَدَّمَهَا، أَيْ: تَسْتُرُهُ وَتُغَطِّيهِ، وَمِنْهُ يُقَالُ: وَالْقِيَامَةُ: الطَّامَّةُ الْكُبْرَى؛ لِأَنَّهَا شِدَّتَهَا تُنْسِي مَا تَقَدَّمَهَا مِنْ شَدَائِدَ الدُّنْيَا حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ فِيهَا كَمَا قَالَ اللهُ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أَيْ: تَصِيرُ شَدَائِدُ الدُّنْيَا عِنْدَهَا مُحْتَقَرَةً بِمَنْزِلَةِ مَا لَمْ يَرَوْهُ إِلَّا سَاعَةً كَعَشِيَّةٍ أَوْ ضُحَاهَا.

وَإِنَّمَا اسْتُعْمِلَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى فِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ؛ لِأَنَّ فِيهَا ذِكْرَ مَا أُوتِيَ بِهِ فِرْعَونَ مِنَ الطَّامَّةِ الْكُبْرَى فِي الْكُفْرِ؛ حَيثُ قَالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فَهَذِهِ فِي الْكَبَائِرِ كَشَدِيدَةِ الآخِرَةِ فِي الشَّدَائِدِ؛ فَكَأَنَّهُ قَرَنَ إِلَى ذِكْرِ الْكَبِيرَةِ

(١) «أَسْرَارُ التَّكْرَارِ فِي الْقُرْآنِ = الْبُرْهَانُ فِي تَوْجِيهِ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ» (ص٢٤٥).

الْمُوفِيَةِ عَلَى أَمْثَالِهَا ذِكْرَ الطَّامَّةِ الْكُبْرَى وَأَهْوَالِهَا.

وَأَمَّا الصَّاخَّةُ؛ فَهِي صَيْحَةٌ تَطْعَنُ الْآذَانَ فَتُصِمُّهَا، يُقَالُ: صَخَّ الْغُرَابُ بِمِنْقَارِهِ فِي دُبُرِ الْبَعِيرِ، أَيْ: طَعَنَ؛ فَالصَّاخَّةُ صَيْحَةٌ شَدِيدَةٌ؛ لِشِدَّةِ صَوْتِهَا تُحْيِي النَّاسَ كَالْصَيحَةِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي تُنَبِّهُ لَهَا النُّوَّامَ.

فَلَمَّا تَقَدَّمَ فِي هَذِهِ الْسُّورَةِ مِنْ حَالَةِ الإِنْسَانِ مَا نَطَقَ بِهِ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾، كَانَ الإِنْشَارُ بِالْصَاخَّةِ الَّتِي تَطْعَنُ الْآذَانَ، فَيَقْضِي اللهُ عِنْدَهَا إِحْيَاءَ الْمَوْتَى، فَقَارَنَ الْآيَاتِ الَّتِي فِي الْسُّورَةِ[1].

(١) «دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَغِرَّةِ التَّأْوِيلِ» (١/ ١٣٣٢).

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ الَّذِي عَبَسَ هُوَ الرَّسُوْلُ فِي قَوْلِ الْجَمِيعِ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾، هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فِي قَوْلِ الْجَمِيعِ(١).

وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ اسْمُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ شُرَيحِ بْنُ مَالِكٍ، وَهُو ابْنُ خَالِ خَدِيْجَةَ، وَأُمُّ مَكْتُومٍ هَذِه أُمُّ أَبِيهِ،(٢) واسْمُهَا عَاتِكَةُ.

سَبَبُ النُّزُوْلِ:

لَا خِلَافَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى(٣).

ذَكَرَ غيرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا يُخَاطِبُ بَعْضَ عُظَمَاءِ قُرَيْشٍ، وَقَدْ طَمِعَ فِي إِسْلَامِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُخَاطِبُهُ وَيُنَاجِيهِ إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ -وَكَانَ مِمَّنْ أَسْلَمَ قَدِيمًا- فَجَعَلَ يَسْأَلُ رَسُوْلَ

(١) «تَفْسِيرُ السَّمْعانِي» (٦/ ١٥٥).

(٢) «تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ ت سَلَامَة» (٨/ ٣١٩).

(٣) «أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ط الْعِلْمِيَّةِ» (٤/ ٣٦٢).

اللهَّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ وَيُلِحُّ عَلَيْهِ، وَوَدَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَوْ كَفَّ سَاعَتَهُ تِلْكَ؛ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ مُخَاطَبَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ؛ طَمَعًا وَرَغْبَةً فِي هِدَايَتِهِ. وعَبَسَ فِي وَجْهِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ وَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْآخَرِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾.

۞ **وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ**: أُنْزِلَت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الأَعْمَى، أَتَى رَسُوْلَ اللهَّ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهَّ أَرْشِدْنِي، وَعِنْدَ رَسُولِ اللهَّ ﷺ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ وَيُقْبِلُ عَلَى الآخَرِ، وَيَقُولُ: «أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا؟» فَيَقُولُ: لَا، فَفِي هَذَا أُنْزِلَ[1].

الْحِكْمَةُ فِي إِعْرَاضِ النَّبِيِّ عَنِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ:

۞ **قَالَ ابْنُ حَزْمٍ**: قَدْ عَلِمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أَنَّهُ لَوْ أَسْلَمَ هَذَا الرَّجلُ؛ لَأَسْلَمَ بِإِسْلَامِهِ نَاسٌ كَثِيرُون، وَأَظْهَرَ الدِّينَ، وَعَلِمَ أَنَّ هَذَا الْأَعْمَى الَّذِي يَسْأَلُه عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ أُمُوْرِ الدِّينِ لَا يَفُوتُهُ وَهُوَ حَاضِرٌ مَعَهُ، فَاشْتَغَلَ عَنهُ -عَلَيْهِ السَّلَام- بِمَا خَافَ فَوْتَهُ مِنْ عَظِيمِ الْخَيْرِ عَمَّا لَا يُخَافُ فَوْتُهُ، وَهَذَا غَايَةُ النَّظَرِ لِلدِّينِ وَالِاجْتِهَادِ فِي نُصْرَةِ الْقُرْآنِ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ، وَنِهَايَةُ التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ الَّذِي لَوْ فَعَلَهُ الْيَوْمَ مِنَّا فَاعِلٌ لَأُجِرَ، فَعَاتَبَهُ اللهُ عَلَى ذَلِك؛ إِذْ كَانَ الْأَوْلَى عِنْدَ اللهِ تَعَالَى أَنْ يُقْبِلَ عَلَى ذَلِكَ الْأَعْمَى الْفَاضِلِ الْبَرِّ التَّقِيِّ[2].

---

(١) «سُنَنُ التِرِّمِذِيِّ» (٥/ ٢٨٩) وَقَالَ: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ» وَقَالَ الحَاكِمُ: قَدْ أَرْسَلَهُ جَمَاعَةٌ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ»، «الْمُسْتَدَرَكُ» (٢/ ٥٥٨).

(٢) «الْفَصْلُ فِي الْمِلَلِ وَالْأَهْوَاءِ وَالنِّحَلِ» (٤/ ١٨).

۞ **قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ والْقُرْطِبِيُّ: قَالَ عُلَمَاؤُنَا:** مَا فَعَلَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ كَانَ مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ، لَوْ كَانَ عَالِمًا بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَشْغُولٌ بِغَيْرِهِ، وَأَنَّهُ يَرْجُو إِسْلَامَهُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَاتَبَ رَسُولَهُ ﷺ حَتَّى لَا تَنْكَسِرَ قُلُوبُ أَهْلِ الصُّفَّةِ، أَوْ لِيُعْلِمَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ الْفَقِيرَ خَيْرٌ مِنَ الْغَنِيِّ، وَكَانَ النَّظَرُ إِلَى الْمُؤْمِنِ أَوْلَى -وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا-، وأَصْلَحَ وَأَوْلَى مِنَ الْأَمْرِ الْآخرِ، وَهُوَ الْإِقْبَالُ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ؛ طَمَعًا فِي إِيمَانِهِمْ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ أَيْضًا نَوْعًا مِنَ الْمَصْلَحَةِ، وَعَلَى هَذَا يَخْرُجُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ [الأَنْفَال: ٦٧] الْآيَةَ.

وَقِيلَ: إِنَّمَا قَصَدَ النَّبِيُّ ﷺ تَأْلِيفَ الرَّجُلِ؛ ثِقَةً بِمَا كَانَ فِي قَلْبِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ مِنَ الْإِيمَانِ، كَمَا قَالَ: إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ؛ مَخَافَةَ أَنْ يُكِبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ[١].

﴿عَبَسَ﴾

الْعَيْنُ وَالْبَاءُ وَالسِّينُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَكَرُّهٍ فِي شَيْءٍ، وَأَصْلُهُ الْعَبَسُ، ثُمَّ اشْتُقَّ مِنْ هَذَا: الْيَوْمُ الْعَبُوسُ، وَهُوَ الشَّدِيدُ الْكَرِيهُ، وَاشْتُقَّ مِنْهُ: عَبَسَ الرَّجُلُ يَعْبِسُ عُبُوسًا، وَهُوَ عَابِسُ الْوَجْهِ: غَضْبَانُ، وَعَبَّاسٌ: إِذَا كَثُرَ ذَلِكَ مِنْهُ[٢].

---

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» (١/ ١٣٢)، «أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ط الْعِلْمِيةِ»، (٤/ ٣٦٣) «تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ» (١٩/ ٢١٣)

(٢) «مَقَايِيسُ اللُّغَةِ» (٤/ ٢١١)

۞ وقَالَ الرَّاغِبُ: العُبُوسُ: قُطُوبُ الْوَجِهِ مِنْ ضِيقِ الصَّدْرِ.[1]

۞ وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: عَبَسَ: «قَبَضَ وَجْهَه تكرُّهًا»[2]، وَنَظَيْرُهُ الْبُسُورُ.

۞ وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ: عَبَسَ: كَلَحَ.[3]

الْفَارِقُ بَيْنَ عَبَسَ وَكَلَحَ وَبَسَرَ:

عَبَسَ يَعْبِسُ عُبُوْسًا فَهُوَ عَابِسُ الْوَجْهِ غَضْبَانُ، فَإِنْ أَبْدَى عَنْ أَسْنَانِهِ فِي عُبُوْسِهِ؛ قُلْتَ كَلَحَ، وَإِنِ اهْتَمَّ لِذَلِكَ وَفَكَّرَ فِيْهِ؛ قُلْتَ: بَسَرَ.[4]

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾

۞ قَالَ الطَّبَرِيُّ وَابْنُ عَطِيَّةَ: أَعرَضَ.

۞ وَقَالَ ابْنُ فُورَك: التَّوَلِّي: هُوَ الذِّهَابُ بِالْوَجِهِ عَنِ الشَّيْءِ؛ لِأَنَّهُ صَرَفَهُ عَنْ أَنْ يَلِيَهُ.[5] وَقَالَ السَّعْدِيُّ: ﴿عَبَسَ﴾ بِوَجْهِهِ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ بِبَدَنِهِ، فَوَقَعَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ حِيَالَ هَذَا الْأَعْمَى أَمْرٌ بَاطِنِيٌّ وَهُوَ الْكَرَاهَةُ، وَأَمْرٌ ظَاهِرِيٌّ وَهُوَ الْعُبُوسُ وَالإِعْرَاضُ[6].

---

(١) «الْمُفْرَدَاتُ فِي غَرِيْبِ الْقُرْآنِ» (ص٥٤٤).

(٢) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١٠٢).

(٣) «تَفْسِيرُ الثَّعْلَبِيِّ» (٢٨/ ٤١٥).

(٤) «الْعَيْنُ» (١/ ٣٤٣).

(٥) «تَفْسِيرُ ابْنِ فُورَك» (٣/ ١٤٨ بِتَرْقِيمِ الشَّامِلَةِ آلِيًّا).

(٦) «التَّفْسِيرُ الْعَقَدِيِّ لِجُزْءِ عَمَّ» (ص ٧٤).

كَأَنَّ اللهَ يَقُولُ لِلرَّسُولِ ﷺ: «لِأَنْ جَاءَكَ الْأَعْمَى وَأَنْتَ مَعَ السَّادَةِ تَعْبَسُ وَتَتَوَلَّى»، فَهَذَا الدِّينُ نَاصِرُهُ هُوَ اللهُ، وَيَنْصُرُهُ بِمَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ سَيِّدًا عَظِيمًا؛ فَاللهُ يُعَلِّمُ رَسُولَه، وَيُعَلِّمُنَا تَبَعًا لَهُ، كَيْفَ نَتَعَامَلُ مَعَ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ عِتَابٌ مِنَ اللهِ لِنَبِيِّهِ، وَقَرِيبٌ مِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التَّوْبَة:٤٣] أَصْلُ الْكَلَامِ: لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ عَفَا اللهُ عَنْكَ؟ فَحِينَ أَرَادَ اللهُ أَنْ يُعَاتِبَ النَّبِيَّ؛ قَدَّمَ الْعَفْوَ عَلَى الْعِتَابِ.

وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي الْعِتَابِ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الْأَنْعَام: ٥٢]، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الْكَهْف: ٢٨]، وَمَا كَانَ مِثْلَهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ(١).

وَهُنَا قَالَ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ وَلَمْ يَقُلِ اللهُ: عَبَسْتَ وَتَوَلَّيْتَ، بَلْ جَاءَ بِصِيغَةِ الْغَائِبِ، وَهَذَا أَلْطَفُ مِنْ أَنْ تَقُولَ: عَبَسْتَ وَتَوَلَّيْتَ؛ لِأَنَّ الْمُشَافَهَةَ بِتَاءِ الْخِطَابِ فِيهَا شِدَّةٌ وَصُعُوبَةٌ، قَالَ أَبُو حَيَّانَ: وَجَاءَ بِضَمِيرِ الْغَائِبِ فِي عَبَسَ وَتَوَلَّى؛ إِجْلَالًا لَهُ ﷺ وَلُطْفًا بِهِ أَنْ يُخَاطِبَهُ؛ لِمَا فِي الْمُشَافَهَةِ بِتَاءِ الْخِطَابِ مِمَّا لَا يَخْفَى(٢).

---

(١) «تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ» (١٩/ ٢١٤).

(٢) «الْبَحْرُ الْمُحِيطُ فِي التَّفْسِيرِ» (١٠/ ٤٠٦).

❁ **وَقَالَ الْقُرْطِبِيُّ:** فَعَلَ ذَلِكَ تَعْظِيمًا لَهُ(١)، وَمِنْهُ نَتَعَلَّمُ أَدَبَ التَّلَطُّفِ مَعَ النَّاسِ فِي الْحِوَارِ وَحُسْنِ اخْتِيَارِ الأَلْفَاظِ، وَأَنَّ الْخَطَأَ قَدْ يَقَعُ مِنْ كُلِّ النَّاسِ حَتَّى مِنَ الأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ الْعِتَابَ دَلِيلُ الْمَحَبَّةِ.

❁ **وَقَالَ صَاحِبُ الظِّلَالِ:** ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ بِصِيغَةِ الْحِكَايَةِ عَنْ أَحَدٍ آخَرَ غَائِبٍ غَيْرِ الْمُخَاطَبِ!

وَفِي هَذَا الأُسْلُوبِ إِيحَاءٌ بِأَنَّ الْأَمْرَ مَوْضُوعُ الْحَدِيثِ مِنَ الْكَرَاهَةِ عِنْدَ اللهِ بِحَيْثُ لَا يُحِبُّ أَنْ يُوَاجِهَ بِهِ نَبِيَّهُ وَحَبِيبَهُ ﷺ(٢).

وَذَكَرَهُ بِلَفْظِ الْأَعْمَى لَيْسَ لِتَحْقِيرِ شَأْنِهِ، بَلْ كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّهُ بِسَبَبِ عَمَاهُ اسْتَحَقَّ مَزِيدَ الرِّفْقِ وَالرَّأْفَةِ(٣)، وَأَيْضًا وَصْفُهُ بِالْأَعْمَى فِيهِ تَبْرِيرٌ مِنَ اللهِ لِفِعْلِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ فِي تَرْكِ الِاسْتِئْذَانِ(٤).

🕮 وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ فَوَائِدُ أُخْرَى:

جَوَازُ الْعَمَلِ بِالِاجْتِهَادِ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَلَ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْعَمَلِ اجْتِهَادًا لَا نَصًّا؛ إِذْ لَوْ كَانَ الْإِذْنُ بِالتَّوَلِّي وَالتَّعَبُّسِ سَائِغًا؛ لَمْ يَكُنْ يُعَاتَبُ بِفِعْلٍ قَدْ أُمِرَ بِهِ.

---

(١) «تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ» (١٩/ ٢١٣).
(٢) «فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ» (٦/ ٨٠٨).
(٣) «تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ، مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ أَوِ التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ» (٣١/ ٥٣).
(٤) «التَّفْسِيرُ الْعَقَدِيُّ» (ص ٧٤).

وَفِيهِ أَنَّ الْكَافِرَ وَإِنْ كَانَ مُبَجَّلًا مُعَظَّمًا فِي قَوْمِهِ، فَلَيْسَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُعَظِّمُوهُ وَيُبَجِّلُوهُ، بَلْ يُسْتَرْذَلُ وَيُسْتَخَفُّ بِهِ، وَأَنَّ الْمُسْلِمَ يَنْبَغِي أَنْ يُعَظَّمَ وَيُكَرَّمَ، وَإِنْ كَانَ حَقِيرًا فِي أَعْيُنِ الْخَلْقِ.

وَفِيهِ آيَةُ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَدَلَالَةُ نُبُوَّتِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْتَلِقْ هَذَا الْكِتَابَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ مَنْ يَتَعَاطَى فِعْلًا حَقُّهُ السِّتْرُ؛ فَهُوَ يَسْتُرُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا يَهْتِكُ عَلَيْهَا السِّتْرَ؛ لِئَلَّا يُذَمَّ عَلَيْهِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَأْمُورًا بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ؛ لَكَانَ يَجْتَهِدُ فِي السِّتْرِ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا يُبْدِيهِ لِلْخَلَائِقِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ رَسُولًا لَمْ يَجِدْ مِنْ تَبْلِيغِهِ إِلَى الْخَلْقِ بُدًّا، فَبَلَّغَهُ كَمَا أُمِرَ[١].

۞ **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ**: كَانَ يُقَالُ: لَوْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَمَ مِنَ الْوَحْيِ شَيْئًا؛ كَتَمَ هَذَا عَنْ نَفْسِهِ[٢].

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ ذِكْرَ هَذِهِ الْعَاهَاتِ مِتَى كَانَتِ الْمَنْفَعَةُ، أَوْ لِأَنَّ شُهْرَتَهَا تُعَرِّفُ السَّامِعَ صَاحِبَهَا دُونَ لَبْسٍ جَائِزٌ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْمُحَدِّثِينَ: سَلْمَانُ الْأَعْمَشُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَعْرَجُ وَسَالِمُ الْأَفْطَسُ وَنَحْوُ هَذَا[٣].

وَمَتَى ذُكِرَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ عَلَى جِهَةِ التَّنَقُّصِ فَتِلْكَ الْغِيبَةُ.

وَقَدْ يُسْتَدَلُّ أَيْضًا بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى وُقُوعِ الصَّغَائِرِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَعَدَمِ عِصْمَتِهِمْ مِنْهَا.

---

(١) «تَفْسِيرُ الْمَاتْرِيدِيِّ = تَأْوِيلَاتُ أَهْلِ السُّنَّةِ» (١٠/ ٤١٩).
(٢) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١٠٥).
(٣) «تَفْسِيرُ ابْنِ عَطِيَّةَ = الْمُحَرَّرُ الْوَجِيزُ فِي تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ» (٥/ ٤٣٧).

وَفِي هَـذِهِ الْآيَـةِ بَيَـانٌ لِشَرَفِ طُـلَّابِ الْعِلْمِ عُمُومًـا وَلِلصَّحَابَـةِ خُصُوصًا؛ فَمَا لَامَ اللهُ نَبِيَّـهُ عَـلَى شَيْءٍ إِلَّا عَلَى الْإِعْرَاضِ عَـنْ أَحَدِهِمْ.

وَيُؤْخَـذُ مِـنَ الْآيَـةِ أَيْضًا أَنَّ الظَّاهِـرَ عُنْوَانُ الْبَاطِـنِ، فَلَمَّا تَضَايَقَ الرَّسُـولُ مِنْ قُدُومِـهِ؛ ظَهَرَ ذَلِكَ عَـلَى وَجْهِهِ.

وَقَـدْ يُسْـتَدَلُّ بِالْآيَـةِ لِلْمَقُولَـةِ الشَّـهِيرَةِ وَيَبْقَـى الْـوُدُّ مَا بَقِـيَ الْعِتَـابُ، فَلَوْلَا حُـبُّ اللهِ لِنَبِيِّـهِ مَـا عَاتَبَهُ.

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾

أَيْ: وَأَنْـتَ تَعْلَـمُ أَنَّـه يُرِيـدُ أَنْ يَتَزَكَّـى، وَفِيـهِ إِشَـارَةٌ إِلَى عَـدَمِ الإِعْـرَاضِ بِالْعِلْـمِ عَمَّـنْ أَرَادَهُ وَطَلَبَـهُ، وَأَنَّ طَالِـبَ الْعِلْـمِ يَنْبَغِـي لَـهُ أَنْ يَكُـونَ هَدَفُـهُ مِـنْ طَلَـبِ الْعِلْـمِ تَزْكِيَـةُ نَفْسِـهِ، وَأَنَّ السَّـائِلَ الَّـذِي قَـدْ يُـلَامُ الْمُعَلِّـمُ عَـلَى إِهْمَالِـهِ هُـوَ مَـنْ قَصَـدَ بِعِلْمِـهِ زَكَاةَ نَفْسِـهِ.

زَكَّـى يُزَكِّـي تَزْكِيَـةً، وَالـزَّكَاةُ: الصَّـلَاحُ، تَقُـولُ: رَجُـلٌ زَكِـيٌّ تَقِـيٌّ، وَرِجَـالٌ أَزْكِيَـاءُ أَتْقِيَـاءُ. وَزَكَا الـزَّرْعُ يَزْكُـو زَكَاءً: ازْدَادَ وَنَـمَا، وَكُلُّ شَيْءٍ ازْدَادَ وَنَـمَا فَهُـوَ يَزْكُـو زَكَاءً[١].

(١) «الْعَيْنُ» (٥/ ٣٩٤).

وفِي قَوْلِه ﴿يَزَّكَّىٰ﴾ خَمْسَةُ أَوْجهٍ:

* **أَحَدُهَا**: يُؤْمِنُ، قَالَهُ عطَاءَ.

وقَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾: يُسْلِمُ[(١)].

* **الثَّانِي**: يَتَعَبَّدُ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، قَالَه ابْنُ عِيْسَى.

* **الثَّالِثُ**: يَحْفَظُ مَا يَتْلُوهُ عَلَيهِ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَهُ الضَّحَاكُ.

* **الرَّابِعُ**: يَتَفقَّهُ فِي الدِّينِ، قَالَه ابْنُ شَجَرَة.

* **الخَامِسُ**: يَتَطَهَّرُ مِنْ ذُنُوبِهِ، قَالَه الطَّبَرِيُّ[(٢)].

وَهَـذِهِ الْوُجُـوهُ تُعَـبِّرُ عَـنْ مَعْنًى وَاحِـدٍ، وَهُـوَ أَنَّ عَبْـدَ اللهِ بْـنَ أُمِّ مَكْتُـومٍ كَانَ قَادِمًـا رَاغِبًـا فِي الخَـيْرِ، انْظُـرْ هَـذِهِ الْأَقْـوَالَ فِي تَفْسِـيرِ «النُّكَـتُ وَالْعِيُـونُ»[(٣)]

قَاعِدَةٌ كُليّةٌ فِي التَّفْسِيرِ:-

مَا أَدْرَاكَ وَمَا يُدْرِيكَ.

قَوْلُـهُ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فِي كِتَـابِ اللهِ فِي ثَلَاثَـةَ عَـشَرَ مَوْضِعًـا، ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فِي ثَلَاثَـةِ مَوَاضِـع، وَتَـأْتِي كَلِمَـةُ (مَـا أَدْرَاكَ) فِي الـشَّيْءِ الَّـذِي لَا يُـدْرَكُ بِالْعَـيْنِ، فَـلَا يَكُـونُ أَبَـدًا (مَـا أَدْرَاكَ مَـا الفِيـلُ)؛ لِأَنَّ الفِيـلَ يُـرَى بِالْـعَيْنِ.

(١) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١٠٦).
(٢) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١٠٦).
(٣) انظُرْ «تَفْسِيرُ الْـماوَرْدِيِّ، النُّكَتُ وَالْعِيونُ» (٦/ ٢٠٢).

۞ وَقَالَ مُقَاتِلٌ، وَسُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، وَالْفَرَّاءُ، وَسَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ، وَالْحُسَيْنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ خَالَوَيْهِ، وَالرَّاغِبُ، وَالْبِقَاعِيُّ: وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فَقَدْ أُخْبِرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يُخْبَرْ بِهِ[١].

۞ قَالَ الرَّاغِبُ: وَكُلُّ مَوْضِعٍ ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾، فَقَدْ عَقَّبَ بِبَيَانِهِ[٢].

وَنَسَبَ السَّمْعَانِيُّ هَذَا الْقَوْلَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ[٣].

📖 اسْتِدْرَاكَاتٌ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ:

۞ قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ: وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ قَضَاءٌ بِإِبْطَالِ قَوْلِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي الْقُرْآنِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فَهُوَ مِمَّا لَمْ يَدْرِهِ؛ يُرْوَى ذَلِكَ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وَغَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَدْرَاهُ هَاهُنَا بِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، وَ«لَعَلَّ» مِنَ اللهِ وَاجِبٌ، وَإِذَا جَعَلَهُ وَاجِبًا فَقَدْ زَكَّاهُ، وَإِذَا زَكَّاهُ فَقَدْ عَلِمَهُ النَّبِيُّ ﷺ[٤].

---

(١) «تَفْسِيرُ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ» (٤/ ٨١١)، «مَعَانِي الْقُرْآنِ لِلْفَرَّاءِ» (٣/ ٢٨٠)، «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» (٣/ ٤٥)، «تَفْسِيرُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ» (١٠/ ٣١٥٧)، «الْحُجَّةُ فِي الْقِرَاءَاتِ السَّبْعِ» (ص٣٦٥)، «تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ لِابْنِ أَبِي زَمَنَيْنِ» (٥/ ٢٦)، «فَتْحُ الْبَارِي لِابْنِ حَجَرٍ» (٤/ ٢٥٥)، «نَظْمُ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الْآيَاتِ وَالسُّوَرِ» (٢١/ ٣١٩).

(٢) «الْمُفْرَدَاتُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ» (ص٣١٣).

(٣) «تَفْسِيرُ السَّمْعَانِيِّ» (٦/ ٣٤).

(٤) «تَفْسِيرُ الْمَاتُرِيدِيِّ، تَأْوِيلَاتُ أَهْلِ السُّنَّةِ» (١٠/ ٤٢٠).

۞ **وَقَالَ النَّحَّاسُ**: فَهَذَا غَلَطٌ؛ قَدْ قَالَ اللهُ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [القَارِعَة: ٣]، وَقَالَ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحَاقَّة: ٣] وَلَيْسَ بَعْدَ هَذَا تَبْيِينٌ[١].

۞ **وَقَالَ أَبُو الْـمُظَفَّرِ الرَّازِيُّ**: قَالَ اللهُ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ وَلَمْ يُخْبِرْهُ بِهَا.

۞ **وَقَالَ**: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فِي عَبَسَ وَقَدْ أَخْبَرَهُ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾[٢].

۞ **وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ أَيْضًا**: قَدْ تُعُقِّبَ هَذَا الْحَصْرُ -يَعْنِي قَوْلَ الْفَرَّاءِ- بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؛ فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَقَدْ عَلِمَ ﷺ بِحَالِهِ، وَأَنَّهُ مِمَّنْ تَزَكَّى وَنَفَعَتْهُ الذِّكْرَى[٣].

۞ **وَقَالَ الرَّاغِبُ**: فِي هَذَا الْـموْضِعِ ذَكَرَ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المُطَفِّفِين: ١٩]، ثُمَّ فَسَّرَ الْكِتَابُ السِّجِّينَ وَالعِلِّيِّينَ[٤].

وَتُنَاقَشُ هَذِهِ الْأَقْوَالُ بِأَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ التَّبْيِينُ فِي نَفْسِ الْسُّورَةِ، وَأَنَّ الْقَاعِدَةَ أَغْلَبِيَّةٌ.

---

(١) «إِعْرَابُ الْقُرْآنِ لِلنَّحَاسِ» (٥/ ١٤٤).
(٢) «مَبَاحِثُ التَفْسِيرِ لِابْنِ الْمُظَفَّرِ الرَّازِيِّ» (ص٣١٥).
(٣) «فَتْحُ الْبَارِي لِابْنِ حَجَرٍ» (٤/ ٢٥٦).
(٤) «الْمُفْرَدَاتُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ» (ص٣٩٩).

📖 الْآيَاتُ الَّتِي جاءَ فِيهَا ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾: -

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ	وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا	وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ

📖 الآيَاتُ الَّتِي فِيهَا ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾: -

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ	وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ	وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ	وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ	وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ	وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ	وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ
وَلَآ أَدْرَاكُمْ بِهِ	وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ	وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ		

وَالْخُلَاصَةُ، أَنَّ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ أَغْلَبِيَّةٌ، قَالَ الْوَاحِدِيُّ: فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَامَّةَ مَا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ مُبْهَمٌ غَيرُ مُبَيَّنٍ[١].

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أَوْ يَتعَّظُ ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ فَتَنْفَعُهُ هَذِهِ الْموْعِظَةُ، وَالتَّذَكُّرُ: طَلَبُ الذِّكْرِ بِالْفِكْرِ، وَقَدْ حَضَّ اللهُ عَلَى التَّذْكِيرِ فِي غَيرِ مَوْضِعٍ مِنَ

(١) «التَّفْسِيرُ الْبَسِيطُ» (٣/ ٤٦٥).

الْقُرْآنِ؛ فقَالَ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وَقَالَ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَكْثِرَ مِنْ ذِكْرِ مَا يَدْعُو إِلَى الْحَقِ وَيَصْرِفُ عَنِ الْبَاطِلِ[1].

وَالتَّذْكِرَةُ: حُضُورُ الْموْعِظَةِ بِاجْتِلَابِ الْفِكْرَةِ عَلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الصَّلَاحِ وَتَزْجُرُ عَنْه مِنَ الْفَسَادِ.

الْفَرْقُ بَيْنَ التَّذْكِرَةِ وَالْمعْرِفَةِ:-

التَّذْكِرَةُ ضِدُّ الْغَفْلَةِ، وَهِيَ طَرِيقٌ إِلَى الْعِلْمِ بِالْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالصَّحِيحِ مِنَ الْفَاسِدِ، وَيُضَادُّهَا الْغَفْلَةُ، وَالْمعْرِفَةُ تُضَادُّ الْجَهَالَةَ وَالشَّكَّ؛ فَكِلَاهُمَا مُتَعَاقِبَان عَلَى حَالِ الذِّكْرِ دُونَ السَّهْوِ[2].

وَقَدْ أَحْسَنَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ بَعْدَ ذَلِكَ غَايَةِ الْإِحْسَانِ، بَلْ قَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ أَنَّه كَانَ يُخَاطِبُهُ قَائِلًا لَهُ: «مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي»[3]، وَلَكِنَّ هَذَا الْأَثَرَ ضَعِيفٌ.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّهُ رَآهُ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ مَعَهُ رَايَةٌ سَوْدَاءُ، وَعَلَيْهِ دِرْعٌ لَهُ[4].

---

(١) «تَفْسِيرُ ابْنِ فُوْرَك» (٣/ ١٤٨).
(٢) «تَفْسِيرُ ابْنِ فُوْرَك» (٣/ ١٥٠).
(٣) «تَفْسِيرُ الثَّعْلَبِيِّ» (٢٨/ ٤١٧).
(٤) «تَفْسِيرُ الطَّبَرَيِّ» (٢٤/ ١٠٤).

۞ وَعَنْ أَنَسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَخْلَفَ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ عَلى الْـمدِينَةِ مَرتَيْنِ»[1].

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾

۞ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ تَصَدَّى: تَتَعَرَّضُ، وَالتَّصَدِّي: الْإِصْغَاءُ، وَأَصْلُهُ تَتَصَدَّدُ مِنَ الصَّدِّ، وَهُوَ مَا اسْتَقْبَلَكَ، وَصَارَ قُبَالَتَكَ، يُقَالُ: دَارِي صَدَدُ دَارِهِ أَيْ: قُبَالَتَهَا[2].

يَقُولُ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى بِمَالِهِ، فَأَنْتَ لَهُ تَتَعَرَّضُ، رَجَاءَ أَنْ يُسْلِمَ[3].

۞ وَقَالَ الْوَاحِديُّ: الْـمعْنَى أَنَّهُ اسْتَغْنَى عَنِ الإِيْمَانِ وَالْقُرْآنِ بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الْـمالِ[4].

۞ وَقَالَ مُجَاهِدٌ، فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾: هُمَا: عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ[5].

فَوَائِدُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ:

هَذِهِ الْآيَةُ تُرَبِّي فِي الْمُسْلِمِ عِزَّةَ النَّفْسِ، وَعَدَمَ الْإِلْحَاحِ عَلَى أَحَدٍ، وَلَوْ

(١) «سُنَنُ أَبِي دَاودِ» (٤/ ٥٥٥)، «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١٠٤).
(٢) «تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ» (١٩/ ٢١٤).
(٣) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١٠٧).
(٤) «التَّفْسِيرُ الْبَسِيطُ» (٢٣/ ١٩٣).
(٥) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١٠٧).

كَانَ هَذَا الإِلْحَاحُ لِأَجْلِ دُخولِهِ الإِسْلَامِ، مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ.
وَهَذِهِ الْآيَةُ تَضَعُ خُطُوطًا عَرِيضَةً فِي تَعامُلِ الإِنْسَانِ مَعَ غَيْرِهِ؛ فَلَا يَفْرِضُ نَفْسَه عَلَى أَحَدٍ، وَلَا سِيمَا مِمَّنْ يَظُنُّونَ فِي أَنْفُسِهِم أَنَّهُمْ أَعْلَى مِنَ النَّاسِ.
وَإِنَّ كَثْرَةَ الإِلْحَاحِ عَلَى الشَّخْصِ لِفِعْلِ الْخَيرِ لَيسَتْ مُجْدِيَةً دَائِمًا، وَإِنَّ الْهِدايَةَ لِلْحَقِّ قَدْ لَا تَتَحَقَّقُ مَعَ وجُودِ خَيْرِ الدُّعَاةِ، بَلْ هِيَ مَحْضُ كَرَمٍ مِنَ اللهِ.

قَالَ الْأَلُوسِيُّ: الإِقْبَالُ عَلَى الْمُدْبِرِ مُخِلٌّ بِالْمُرُوءَةِ، وَمِنْ هُنَا قِيلَ:

لَا أَبْتَغِي وَصَلَ مَنْ لَا يَبْتَغِي صِلَتِي وَلَا أَلِينُ لِمَنْ لَا يَبْتَغِي لِينِي
وَاللهِ لَوْ كَرِهَتْ كَفِّي مُصَاحَبَتِي يَوْمًا لَقُلْتُ لَهَا عَنْ صُحْبَتِي بِينِي[(١)]

وَقَالَ السَّعْدِيُّ: إِقْبَالُكَ عَلَى مَنْ جَاءَ بِنَفْسِهِ مُفْتَقِرًا لِذَلِكَ مِنْكَ، هُوَ الْأَلْيَقُ الْوَاجِبُ، وَأَمَّا تَصَدِّيكَ وَتَعَرُّضُكَ لِلْغَنِيِّ الْمُسْتَغْنِي الَّذِي لَا يَسْأَلُ وَلَا يَسْتَفْتِي لِعَدَمِ رَغْبَتِهِ فِي الْخَيْرِ، مَعَ تَرْكِكَ مَنْ هُوَ أَهَمُّ مِنْهُ، لَا يَنْبَغِي لَكَ؛ فَإِنَّه لَيْسَ عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى، فَلَوْ لَمْ يَتَزَكَّ، فَلَسْتَ بِمُحَاسَبٍ عَلَى مَا عَمِلَهُ مِنَ الشَّرِّ.

فَدَلَّ هَذَا عَلَى الْقَاعِدَةِ الْمشْهُورَةِ، أَنَّهُ: «لَا يُتْرَكُ أَمْرٌ مَعْلُومٌ لِأَمْرٍ مَوْهُومٍ، وَلَا مَصْلَحَةٌ مُتحقّقةٌ لِمَصْلَحَةٍ مُتوهمَةٍ»، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي الإِقْبَالُ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ، الْمُفْتَقِرِ إِلَيهِ، الْحَرِيصِ عَلَيهِ أَزْيَدُ مِنْ غَيْرِهِ[(٢)].

---

(١) «تَفْسِيرُ الأَلُوسيِّ، رُوحُ المعَانِي» (١٥/ ٢٤٣).
(٢) «تَفْسِيرُ السَّعْدِيِّ، تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص٩١١).

﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾

لَسْتَ مُلْزَمًا بِأَنْ تَجْعَلَهُ يَقْبَلُ الحَقَّ، وَهَذَا لَيْسَ بِإِمْكَانِكَ أَصْلًا، وَقَدْ قَالَ اللهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الْغَاشِيَةُ:٢٢]، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [الْقَصَصُ:٥٦] وَقَرِيبٌ مِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ﴾، فَهِدَايَةُ النَّاسِ لَيْسَتْ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ.

وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ دَوْرَ النَّاصِحِ يَنْتَهِي بِبَلَاغِ النَّصِيحَةِ، وَأَنَّ قَبُولَ الْمدْعُوِّ لِلْحَقِّ مِنْ عَدَمِهِ لَيْسَ عَلَى الدَّاعِي.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾

وَهَذَا عِتَابٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ، ﴿وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾ وَالْخَشْيَةُ بِدَايَةُ كُلِّ خَيرٍ.

﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ أَيْ: تُعْرِضُ عَنْهُ بِوَجْهِكَ وَتُشْغَلُ بِغَيْرِهِ.

وَأَصْلُهُ: تَتَلَهَّى، يُقَالُ: لَهِيتُ عَنِ الشَّيْءِ أَلْهَى، أَيْ: تَشَاغَلْتَ عَنْهُ.

وَالتَّلَهِّي: التَّغَافُلُ[(١)]، فَلَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ، لِذَا قَالَ اللهُ لَهُ: ﴿كَلَّآ﴾ مَا الْأَمْرُ كَمَا تَفْعَلُ يَا مُحَمَّدُ، مِنْ أَنْ تَعْبَسَ فِي وَجْهِ مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى، وَتَتَصَدَّى لِمَنِ اسْتَغْنَى[(٢)].

---

(١) «تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ» (١٩/ ٢١٥).

(٢) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١٠٧).

وَلَا تَعُدْ إِلَى ذَلِكَ ثَانِيَةً.

۞ **وَقَالَ ابْنُ جُزَيٍّ:** (كَلَّا) رَدْعٌ عَنْ مُعَاوِدَةِ مَا وَقَعَ الْعِتَابُ فِيهِ[١].

وَهَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الْوَحِيدَةُ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ يُقَالُ لِلرَّسُولِ الْحَبِيبِ الْقَرِيبِ: «كَلَّا»، وَالأُسْلُوبُ الَّذِي تَوَلَّى بِهِ الْقُرْآنُ هَذَا الْعِتَابَ الْإِلَهِي أُسْلُوبٌ فَرِيدٌ، لَا يُمْكِنُ تَرْجَمَتُهُ فِي لُغَةِ الْكِتَابَةِ الْبَشَرِيَّةِ[٢].

۞ **وَقَالَ الْحَسَنُ:** الَّذِي فَعَلْتَهُ مِنَ التَّوَلِّي عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالإِقْبَالِ عَلَى الْكَفَرَةِ، لَيْسَ مِنْ حُكْمِي[٣].

وَالَّذِي جَرَى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ تَرْكُ الْأَوْلَى كَمَا تَقَدَّمَ، وَلَوْ حُمِلَ عَلَى صَغِيرَةٍ لَمْ يَبْعُدْ، قَالَهُ الْقُشَيْرِيُّ.

وَالْوَقْفُ عَلَى (كَلَّا) عَلَى هَذَا الْوَجْهِ جَائِزٌ[٤].

وَيُسْتَفَادُ مِنَ الآيَةِ:

أَنَّه يَجِبُ أَنْ يَتَلَقَّى النَّاسُ الْمَوَازِينَ وَالْقِيَمَ مِنَ السَّمَاءِ لَا مِنَ الْأَرْضِ، وَمِنَ الاِعْتِبَارَاتِ السَّمَاوِيَّةِ لَا مِنَ الاِعْتِبَارَاتِ الْأَرْضِيَّةِ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وَالْأَكْرَمُ عِنْدَ اللهِ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الرِّعَايَةَ وَالِاهْتِمَامَ وَالِاحْتِفَالَ[٥].

---

(١) «تَفْسِيرُ ابْنِ جُزَيٍّ، التَّسْهِيلُ لِعُلُومِ التَّنْزِيلِ» (٢/ ٤٥٣).
(٢) (فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ ٦/ ٨٠٨)، (بِنَحْوِهِ التَّفْسِيرُ الْعَقَدِيُّ لِجُزْءِ عَمَّ ص ٨١).
(٣) «تَفْسِيرُ الْمَاتُرِيدِيِّ، تَأْوِيلَاتُ أَهْلِ السُّنَّةِ» (١٠/ ٤٢١).
(٤) «تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ» (١٩/ ٢١٥).
(٥) «فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ» (٦/ ٨١٠).

وَتَأَدَّبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا أَدَّبَهُ اللهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، فَلَمْ يُعْرِضْ بَعْدَهَا عَنْ فَقِيرٍ، وَلَا تَعَرَّضَ لِغَنِيٍّ، وَكَذَلِكَ اتَّبَعَهُ فُضَلَاءُ الْعُلَمَاءِ، فَكَانَ الْفُقَرَاءُ فِي مَجْلِسِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ كَالأُمَرَاءِ، وَكَانَ الْأَغْنِيَاءُ يَتَمَنَّوْنَ أَنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ(١)، وَهَذَا الْأَدَبُ يَنْبَغِي أَنْ يَحْرِصَ عَلَيهِ كُلُّ شَيْخٍ مَعَ طُلَّابِهِ.

وَإِنْ كَانَ اللهُ عَاتَبَ رَسُولَهُ فِي الْعَبَسِ لِشَخْصٍ أَعْمَى لَا يَرَى، فَكَيْفَ الْعِتَابُ لِمَنْ يَعْبَسُ فِي وُجُوهِ النَّاسِ وَهُم يَرَوْنَهُم؟!

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا مَنْ أَقْبَلَ عَلَى وَعْظِ الْأَغْنِيَاءِ وَتَرَكَ الْفُقَرَاءَ، أَوْ أَقْبَلَ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ الْغَنِيِّ، وَأَهْمَلَ الطَّالِبَ الْفَقِيرَ.

وَسَيُبَدِّلُ اللهُ هَذَا الطَّالِبَ الْفَقِيرَ بِشَيْخٍ خَيْرٍ مِنْهُ، وَأَنْفَعَ لَهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾

هَذِهِ الْآيَاتُ تَتَحَدَّثُ عَنْ جُحُودِ الْإِنْسَانِ وَكُفْرِهِ الْفَاحِشِ لِرَبِّهِ، وَهُوَ يُذَكِّرُهُ بِمَصْدَرِ وُجُودِهِ، وَأَصْلِ نَشْأَتِهِ، وَتَيْسِيرِ حَيَاتِهِ، وَتَوَلِّي رَبِّهِ لَهُ فِي مَوْتِهِ وَنَشْرِهِ، ثُمَّ تَقْصِيرِهِ بَعْدَ ذَلِكَ فِي أَمْرِهِ(٢).

---

(١) «تَفْسِيرُ ابْنِ جُزَيٍّ، التَّسْهِيلُ لِعُلُومِ التَّنْزِيلِ» (٢/ ٤٥٣).

(٢) «فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ» (٦/ ٤٠٨).

كَقَوْلِهِ ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [المُدَّثِّر: ٥٤].

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ فِيهِ وَجْهَانِ:-

* أَحَدُهُمَا: أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ الْمُتَقَدِّمَ تَذْكِرَةٌ أَوْ مَوْعِظَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

* وَالْآخَرُ: أَنَّ الْقُرْآنَ تَذْكِرَةٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُؤْثَرَ فِيهِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَهَذَا أَرْجَحُ؛ لِأَنَّهُ يُنَاسِبُهُ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ وَمَا بَعْدَهَا[1].

۞ قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآن، ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أَيْ: فَمَنْ شَاءَ؛ ذَكَرَ اللهَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ[2].

أَوْ فَمَنْ شَاءَ اتَّعَظَ بِالْقُرْآنِ.

وَفِيهِ إِشَارَةٌ لِمَنْ يَتَصَدَّرُونَ لِوَعْظِ النَّاسِ أَنْ يَهْتَمُّوا بِتَفْهِيمِهِمُ الْقُرْآنَ، وإِسْمَاعِهِمْ مَوَاعِظَهُ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَهُمَا فَيُقَالُ، هَذَا الدِّينُ وَهَذَا الْقُرْآنُ وَهَذِهِ الْمَوَاعِظُ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ، وقِيلَ: الْكَلَامُ عَلَى جِهَةِ التَّهْدِيدِ وَمَعْنَاهُ: فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَهُ فَلْيَذْكُرْهُ، وَمَنْ شَاءَ أَلَّا يَذْكُرَهُ فَلَا يَذْكُرْهُ؛ كَقَوْلِهِ ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾[3].

(١) «تَفْسِيرُ الثَّعْلَبِيِّ» (٢٨/ ٤٢٣)، «تَفْسِيرُ ابْنِ جُزَيٍّ، التَّسْهِيلُ لِعُلُومِ التَّنْزِيلِ» (٢/ ٤٥٣)

(٢) «تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ ت سَلَامَة» (٨/ ٣٢١).

(٣) «لَطَائِفُ الْإِشَارَاتِ، تَفْسِيرُ الْقُشَيْرِيِّ» (٣/ ٦٨٨).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: ذَكَرَهَا؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ: فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَ هَذَا الشَّيْءَ[١].

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾، يَعْنِي: فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَهُوَ الْمَرْفُوعُ الْمُطَهَّرُ عِنْدَ اللهِ[٢].

قَوْلُهُ: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَوْجُهٍ:

* **أَحَدُهَا**: مُكَرَّمَةٌ عِنْدَ اللهِ، قَالَهُ السُّدِّايُّ.

* **الثَّانِي**: مُكَرَّمَةٌ فِي الدِّينِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْحِكَمِ وَالْعِلْمِ.

* **الثَّالِثُ**: لِأَنَّه نَزَلَ بِهَا كِرَامُ الْحَفَظَةِ.

* **الرَّابِعُ**: أَنَّهَا نَزَلَتْ مِنْ كَرِيمٍ، لِأَنَّ كَرَامَةُ الْكِتَابِ مِنْ كَرامَةِ صَاحِبِهِ[٣].

وَكُلُّهَا مُحْتَمَلَةٌ؛ فيُقَالُ ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ مِنْ عِنْدِ الْكَرِيمِ سُبْحَانَه، لأَنَّ كَرَامَةَ الْكِتَابِ مِنْ كَرَامَةِ صَاحِبِهِ. مُكرَّمةٌ نَزَلَ بِهَا مَلَكٌ كَرِيمٌ، مُكَرَّمَةٌ إِلَى رَسُولٍ كَرِيمٍ، إِلَى أُمَّةٍ كَرِيمةٍ، ومُكَرَّمَةٌ فِي الدِّينِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْحِكَمِةِ وَالْعِلْمِ، مُكَرَّمَةٌ عَنْ التَّحْرِيفِ، ومُكرَّمةٌ عَنِ الدَّنَسِ.[٤] وَقَدْ يُسْتَفادُ مِنَ الآيةِ أَصْلٌ عَامٌ وَهُوَ إِكْرَامُ الْمَصَاحِفِ بِاخْتيارِ أَكْرَمِ الْأَوْرَاقِ لِتُطْبَعَ

---

(١) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (١٤/ ٢٧٤).
(٢) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١٠٨).
(٣) «تَفْسِيرُ الْماوَرْدِيِّ = النُّكَتُ وَالْعُيونُ» (٦/ ٢٠٣).
(٤) «تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيّ» (١٩/ ٢١٦).

عليهَا.

﴿مَّرۡفُوعَةٖ﴾ فِيه قولان:

* **أَحدُهُمَا**: مَرْفُوعَةٌ فِي السَّمَاءِ، قَالَهُ يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ.

* **الثَّانِي**: مَرْفُوْعَةُ الْقَدْرِ وَالذّكرِ، قَالَه الطَّبَري[١].

وَقَدْ يُسْتَفادُ مِنْ هَذه الآيَةِ، رَفْعُ الْمصَاحِفَ عَنْ الْأَرْضِ، وَحُرْمَةِ امْتِهَانِهَا.

﴿مُّطَهَّرَةِۭ﴾ فِيهِ خَمْسَةُ أَقَاوِيلُ:

* **أَحَدُهَا**: مِنَ الدّنَسِ، قَالَه يَحْيى بْنُ سَلَامٍ.

* **الثَّانِي**: مِنَ الشِّرْكِ، قَالَه السُّدِّيُّ.

* **الثَّالِثُ**: أَنَّه لَا يَمْسُّهَا إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ.

* **الرَّابِعُ**: مُطَهَّرَةٌ مِنْ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَهُ الْحَسَنُ.

* **الْخَامِسُ**: لِأَنَّهَا نَزَلَتْ مِنْ طَاهِرٍ مَعْ طَاهِرٍ عَلَى طَاهِرٍ.

وَكُلُّهَا صَوَابٌ؛ فَهِيَ مُطَهَّرَةٌ عَنِ الدَّنَسِ، ومُطَهَّرَةٌ لَا يَمَسُّهَا إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ وَهُمُ الْملَائِكَةُ، وَمُطَهَّرَةٌ مِنَ التَّنَاقُضِ وَالْكَذِبِ[٢].

---

(١) «تَفْسِيرُ الثَّعَلِبيِّ» (٢٨/ ٤٢٤) «تَفْسِيرُ الْماوِرْدِيِّ = النُّكَتُ وَالْعُيونُ» (٦/ ٢٠٣).

(٢) «لَطَائِفُ الإِشَارَاتِ، تَفْسِيرُ الْقُشَيْرِيِّ» (٣/ ٦٨٩)، «تَفْسِيرُ الْماوَرْدِيِّ، النُّكَتُ وَالْعُيونُ» (٦/ ٢٠٣).

﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾

سَفَرَة: جَمْعُ سَافِرٍ[(١)].

(سَفَرَ) السِّينُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الِانْكِشَافِ وَالْجَلَاءِ. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: سَفَرَ بَيْنَ الْقَوْمِ سِفَارَة، إِذَا أَصْلَحَ، فَهُوَ مِنَ الْبَابِ؛ لِأَنَّهُ أَزَالَ مَا كَانَ هُنَاكَ مِنْ عَدَاوَةٍ وَخِلَافٍ[(٢)].

قَوْلُهُ: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

* **أَحَدُهَا**: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةَ: فِي قَوْلِهِ: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ قَالَا: كَتَبَة[(٣)].

قَالَ الـمُفَضَّلُ: هُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ سَفَرَ يُسْفِرُ سَفْرًا، إِذَا كَتَبَ، قَالَ الزَّجَّاجُ: إِنَّمَا قِيلَ لِلْكِتَابِ سِفْرٌ وَلِلْكَاتِبِ سَافِرٌ مِنْ تَبْيِينِ الشَّيْءِ وَإِيضَاحِهِ، كَمَا يُقَالُ: أَسْفَرَ الصُّبْحُ إِذَا وَضَحَ ضِيَاؤُهُ وَظَهَرَ، وَسَفَرَتِ الـمَرْأَةُ إِذَا كَشَفَتْ نِقَابَهَا.

وَيُقَالُ لِلْوَرَّاقِ: سَفِيرٌ بِلُغَةِ الْعِبْرَانِيةِ[(٤)].

* **الثَّانِي**: أَنَّهُم الْقُرَّاءُ؛ لِأَنَّهُمْ يَقْرَؤُونَ الْأَسْفَارَ.

---

(١) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١٠٨)

(٢) «مَقَايِيسُ اللُّغَةِ» (٣/ ٨٢)

(٣) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١٠٨)

(٤) «تَفْسِيرُ الثَّعْلَبِيِّ» (٢٨/ ٤٢٥)، «تَفْسِيرُ السَّمَرْقَنْدِيِّ، بَحْرُ الْعُلُومِ» (٣/ ٥٤٧).

* **الثَّالِثُ**: هُمُ الْـملَائِكَةُ؛ لَأَنَّهُمُ السَّفَرَةُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرُسُلِهِ بِالرَّحْمَةِ، قَالَ زَيْدٌ: كَمَا يُقَالُ سَفَرَ بَيْنَ الْقَوْمِ إِذَا بَلَغَ صَلَاحًا[(١)].

وَقَالَ الْفَرَّاءُ: وَهُمُ الْـملَائِكَةُ، وَاحِدُهُمْ سَافِرٌ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: سَفَرْتُ بَيْنَ الْقَوْمِ إِذَا أَصْلَحْتُ بَيْنَهُمْ، فَجُعِلَتِ الْـملَائِكَةُ إِذَا نَزَلَتْ بِوحْيِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَأْدِيبِه كَالسَّفِيرِ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ الْقَوْمِ[(٢)].

وَسُمِّيَ التَّفْسِيرُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ سَفِيرًا؛ لِأَنَّهُ يُظْهِرُ عَمَّا فِي قَلْبِ هَذَا وَعَمَّا فِي قَلْبِ الْآخَرِ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا[(٣)].

وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: أَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ: قَوْلُ مَنْ قَالَ: هُمُ الْـملَائِكَةُ الَّذِينَ يُسْفِرُونَ بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ بِالْوَحْيِ.

وَسَفِيرُ الْقَوْمِ: الَّذِي يَسْعَى بَيْنَهُمْ بِالصُّلْحِ، يُقَالُ: سَفَرْتُ بَيْنَ الْقَوْمِ: إِذَا أَصْلَحْتُ بَيْنَهُمْ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَمَا أَدَعُ السِّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي ... وَمَا أَمْشِي بِغِشٍّ إِذْ مَشَيْتُ

وَإِذَا وُجِّهَ التَّأْوِيلُ إِلَى مَا قُلْنَا؛ احْتَمَلَ الْوَجْهَ الَّذِي قَالَهُ الْقَائِلُونَ هُمُ الْكَتَبَةُ، وَالَّذِي قَالَهُ الْقَائِلُونَ هُمُ الْقُرَّاءُ؛ لِأَنَّ الْـملَائِكَةَ هِيَ الَّتِي تَقْرَأُ الْكُتُبَ، وَتُسْفِرُ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ رُسُلِهِ، وَالْـملَائِكَةُ رُسُلٌ يُصْلِحُونَ بَيْنَ اللهِ

(١) «تَفْسِيرُ الْـماوَرْدِيِّ، النُّكَتُ وَالْعُيُونُ» (٦/ ٢٠٤).
(٢) «مَعَانِي الْقُرْآنِ لِلْفَرَّاءِ» (٣/ ٢٣٦).
(٣) «تَفْسِيرُ السَّمْعَانِيِّ» (٦/ ١٥٨).

وَبَيْنَ النَّاسِ بِالْوَحْيِ.

وَيَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يُشَابِهَ الْملَائِكَةَ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ، ويُحَاوِلُ الإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ، قَالَ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأَنْفَال: ١].

وَهَلْ كُلُّ الْملَائِكَةِ رُسُلٌ؟

لِلْعُلَمَاءِ قَوْلَانِ ذَكَرَهُمَا الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ:[1]

* الْقَوْلُ الأَوَّلُ: كُلُّ الْملَائِكَةِ رُسُلٌ، وَيَسْتَدِلُّونَ بِقَوْلِ رَبِّنَا: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فَاطِر:١].

* الْقَوْلُ الثَّانِي: بَعْضُ الْملَائِكَةِ رُسُلٌ، ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحَجّ:٧٥]؛ فَبَعْضُ الْملَائِكَةِ قَدِ اصْطَفَاهُمُ اللهُ لِيَكُونُوا رُسُلًا، وَبَعْضُهمُ قَائِمٌ لَا يَرْكَعُ، وَبَعْضُهُمْ رَاكِعٌ لَا يَسْجُدُ، وَبَعْضُهُمْ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ، وَقَدْ جَاءَ بِذَلِكَ حَدِيثٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَصَحُّ مِنَ الْأَوَّلِ.

﴿كِرَامٍ﴾

(كَرَمَ) الْكَافُ وَالرَّاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ لَهُ بَابَانِ: أَحَدُهُمَا شَرَفٌ فِي الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ، أَوْ شَرَفٌ فِي خُلُقٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ[2].

(١) «فَتْحُ الْبَارِي لِابْنِ حَجَرٍ» (٨/ ٦٩٢).

(٢) «مَقَايِيسُ اللُّغَةِ» (٥/ ١٧١).

وَالإِكْرَامُ والتَّكْرِيمُ: أَنْ يُوصِلَ إِلَى الإِنْسَانَ إِكْرَامًا، أَيْ: نَفْعًا لَا يَلْحَقُهُ فِيهِ غَضَاضَةٌ، أَوْ أَنْ يَجْعَلَ مَا يُوصِلُ إِلَيهِ شَيْئًا كَرِيمًا، أَيْ: شَرِيفًا، قَالَ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذَّارِيَات: ٢٤]، وَقَولُهُ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأَنْبِيَاء: ٢٦] أَيْ: جَعَلَهُمْ كِرَامًا، قَالَ: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الإِنْفِطَار: ١١][1].

وَكَذَا مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ، صَارَ كَرِيمًا شَرِيفًا، فَهُمْ أَهْلُ الله، وَأَهْلٌ لِأَنْ يَؤُمُّوا النَّاسَ فِي الصَّلَاةِ، وَأَهْلٌ لِلتَّقْدِيمِ فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَحتَّى فِي الدَّفْنِ يُقَدَّمُ الْأَكْثَرُ قُرْآنًا.

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا[2]، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ عَظُمَتْ قِيمَتُهُ.

وَفِي الْكِرَامِ أَرْبَعَةُ أَقَاوِيلَ:

* **أَحَدُهَا:** كِرَامٌ عَلَى رَبِّهِم، قَالَهُ الْكَلْبِيُّ.

* **الثَّانِي:** كِرَامٌ عَنِ الْمعَاصِي فَهُمْ يَرْفَعُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنْهَا، قَالَهُ الْحَسَنُ. كَقَوْلِه: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

* **الثَّالِثُ:** يَتَكَرَّمُونَ عَلَى مَنْ بَاشَرَ زَوْجَتَه بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ دِفَاعًا عَنْهُ وَصِيَانَةً لَهُ، وَهُوَ مَعْنَى قَولِ الضَّحَّاكِ.

---

(١) «الْمُفْرَدَاتُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ» (ص٧٠٧).

(٢) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» (١/ ٥٥٩).

*الرَّابِعُ: أَنَّهُمْ يُؤْثِرُونَ مَنَافِعَ غَيْرِهِم عَلَى مَنَافِعِ أَنْفُسِهِمْ[١].

۞ وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: خُلُقُهُمْ كَرِيمٌ حَسَنٌ شَرِيفٌ، وَأَخْلَاقُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ بَارَّةٌ طَاهِرَةٌ كَامِلَةٌ. وَمِنْ هَاهُنَا يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ عَلَى السَّدَادِ وَالرَّشَادِ[٢].

وَمَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ فَقَدْ قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ، مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ، فَلَهُ أَجْرَانِ»[٣] وَمَعْنَى مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، أَيْ إِنَّهُ يَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِمْ فِي كِتَابَةِ الْقُرْآنِ وَتِلَاوَتِهِ، أَوْ لَه مِنَ الْأَجْرِ عَلَى الْقُرْآنِ مِثْلُ أُجُورِهِمْ[٤].

(بَرَّ) الْبَاءُ وَالرَّاءُ فِي الْمُضَاعَفِ أَرْبَعَةُ أُصُولٍ: الصِّدْقُ، وَحِكَايَةُ صَوْتٍ، وَخِلَافُ الْبَحْرِ، وَنَبْتُ الْبُرِّ.

(١) «تَفْسِيرُ الْماوَرْدِيِّ، النُّكَتُ وَالْعُيونُ» (٦/ ٢٠٤).
(٢) «تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ ت سَلامَة» (٨/ ٣٢١).
(٣) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» (٦/ ١٦٦).
(٤) «تَفْسِيرُ ابْنِ جُزَيٍّ، التَّسْهِيلُ لِعُلُومِ التَّنْزِيلِ» (٢/ ٤٥٣).

فَأَمَّا الصِّدْقُ فَقَوْلُهُمْ: صَدَقَ فُلَانٌ وَبَرَّ، وَبَرَّتْ يَمِينُهُ: صَدَقَتْ، وَأَبَرَّهَا: أَمْضَاهَا عَلَى الصِّدْقِ.

وَتَقُولُ: بَرَّ اللهُ حَجَّكَ وَأَبَرَّهُ، وَحَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ، أَيْ: قُبِلَتْ قَبُولَ الْعَمَلِ الصَّادِقِ. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: يَبَرُّ رَبَّهُ، أَيْ: يُطِيعُهُ، وَهُوَ مِنَ الصِّدْقِ.

وَمِنْهُ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الْبَقَرَة:١٧٧][١].

الْبَرُّ: خِلَافُ الْبَحْرِ، وَتُصُوِّرَ مِنْهُ التَّوَسُّعُ فَاشْتُقَ مِنْهُ الْبِرُّ، أَيْ: التَّوَسُّعُ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ، وَيُقَالُ: بَرَّ الْعَبْدُ رَبَّهُ، أَيْ: تَوَسَّعَ فِي طَاعَتِهِ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ: التَّوَسُّعُ فِي الإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا، وَضِدُّهُ الْعُقُوقِ، وَيُسْتَعْمَلُ الْبِرُّ فِي الصِّدْقِ؛ لِكَوْنِهِ بَعْضَ الْخَيْرِ الْمُتَوَسَّعِ فِيهِ، يُقَالُ: بَرَّ فِي قَوْلِهِ، وَبَرَّ فِي يَمِينِهِ، وَجَمْعُ الْبَارِّ: أَبْرَارٌ وَبَرَرَةٌ، قَالَ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الإنْفِطَارِ: ١٣]، وَقَالَ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [الْمُطَفِّفِينَ: ١٨]، وَقَالَ فِي صِفَةِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾؛ فَبَرَرَةٌ خُصَّ بِهَا الْمَلَائِكَةُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ إِنَّه أَبْلَغُ مِنْ أَبْرَارٍ؛ فَإِنَّهَا جَمْعُ بَرٍّ، وَأَبْرَارٌ جَمْعُ بَارٍّ، وبَرٌّ أَبْلَغُ مِنْ بَارٍّ، كَمَا أَنَّ عَدْلًا أَبْلَغُ مِنْ عَادِلٍ[٢].

---

(١) «مَقَايِيسُ اللُّغَةِ» (١/ ١٧٧).

(٢) «الْمُفْرَدَاتُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ» (ص١١٤).

📖 وَفِي (بَرَرَةٍ) ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ:

* **أَحَدُهَا**: مُطِيعِينَ، قَالَهُ السُّدِّيُّ.

* **الثَّانِي**: صَادِقِينَ وَاصِلِينَ، قَالَهُ الطَّبَرِيُّ.

* **الثَّالِثُ**: مُتَّقِينَ مُطَهَّرِينَ، قَالَهُ ابْنُ شَجَرَة.

* **الرَّابِعُ**: أَنَّ الْبَرَرَةَ: مَنْ تَعدَّى خَيْرُهُم إِلَى غَيرِهِم، وَالْخَيَرَةُ: مَنْ كَانَ خَيْرُهُمْ مُقْصُوْرًا عَلَيهِم[١].

وَكُلُّ هَذِهِ الصِّفَاتِ أَرْشَدَ إِلَيهَا الْقُرْآنُ، وَالْأَصْلُ فِي حَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ عَامِلًا بِهِ مُتَّصِفًا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾

﴿قُتِلَ﴾

(قَتَلَ) الْقَافُ وَالتَّاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِذْلَالٍ وَإِمَاتَةٍ[٢].

وَفِي (قُتِلَ) وَجْهَانِ:

* **أَحَدُهُمَا**: عُذِّبَ.

* **الثَّانِي**: لُعِنَ.

(١) «تَفْسِيرُ الْماوَرْدِيِّ، النُّكَتُ وَالْعُيونُ» (٦/ ٢٠٥)

(٢) «مَقَايِيْسُ اللُّغَةِ» (٥/ ٥٦)

وَفِي (الإِنْسَانُ) ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

* أَحَدُهَا: أَنَّه إِشَارَةٌ إِلَى كُلِّ كَافِرٍ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ.

۞ وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: دُعَاءٌ عَلَى اسْمِ الْجِنْسِ، وَهُوَ عُمُومٌ يُرَادُ بِهِ الْخُصُوصُ، وَالْمعْنَى: قُتِلَ الإِنْسَانُ الْكَافِرُ، وَمَعْنَى قُتِلَ أَيْ: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُدْعَى عَلَيهِ بِهَذَا[١].

قُتِلَ الإِنْسَانُ الآنِسُ بِنَفْسِهِ، النَّاسِي لِرَبِّهِ الْمُتَكَبِّرُ عَلَى غَيْرِهِ الْمُعْجَبُ بِشَمَائِلِهِ الَّتِي أَبْدَعَهَا لَهُ خَالِقُهُ، حَصَلَ قَتْلُهُ بِلَعْنِهِ وَطَرْدِهِ، وَفَرَغَ مِنْهُ بِأَيْسَرِ سَعْيٍ وَأَسْهَلِهِ مِنْ كُلِّ مَنْ يَصِحُّ ذَلِكَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ أَسْرَعُ شَيْءٍ إِلَى الْفَسَادِ؛ لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى النَّقَائِصِ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ[٢].

* الثَّانِي: أَنَّهُ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ.

* الثَّالِثُ: أَنَّه عُتْبَةُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ حِينَ قَالَ: إِنِّي كَفَرْتُ بِرَبِ النَّجْمِ إِذَا هَوَى، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبَكَ) فَأَخَذَهُ الْأَسَدُ فِي طَرِيقِ الشَّامِ، قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ وَالكَلْبِيُّ[٣].

---

(١) (الْمُحَرَّرُ الْوَجِيزُ، ١٠/ ١٣٦).

(٢) «نَظْمُ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الآيَاتِ وَالسُّوَرِ» (٢١/ ٢٥٩).

(٣) «تَفْسِيرُ الْماوَرْدِيِّ، النُّكَتُ وَالْعُيونُ» (٦/ ٢٠٥)، «تَفْسِيرُ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ» (٤/ ٥٩١).

۞ عَنْ أَبِي نَوْفَلِ بْنِ أَبِي عَقْرَبٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ لَهَبُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ يَسُبُّ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبَكَ» فَخَرَجَ فِي قَافِلَةٍ يُرِيدُ الشَّامَ فَنَزَلَ مَنْزِلًا، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالُوا لَهُ: كَلَّا، فَحَطُّوا مَتَاعَهُمْ حَوْلَهُ وَقَعَدُوا يَحْرُسُونَهُ فَجَاءَ الْأَسَدُ فَانْتَزَعَهُ فَذَهَبَ بِهِ «صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»[1]، وَحَسَّنَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ[2].

📖 **قَاعِدَةٌ:**

الْغَالِبُ فِي إِطْلَاقِ لَفْظِ الإِنْسَانِ فِي الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ أَنَّهُ الْكَافِرُ[3].

قَالَ مُجَاهِدٌ: «مَا كَانَ فِي الْقُرْآنِ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فَإِنَّمَا عُنِيَ بِهِ الْكَافِرُ»[4].

وَكُلُّ «قُتِلَ» فِي الْقُرْآن فمَعْنَاهُ: لُعِنَ[5].

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ:

* **أَحَدُهُمَا:** التَّعَجُّبُ مِنْ كُفْرِهِ، وَالْمَعْنَى: اعْجَبُوا مِنْ كُفْرِ الإِنْسَانِ مَعَ إِحْسَانِ اللهِ إِلَيْهِ، وَأَيَادِيهِ عِنْدَهُ.

---

(١) «الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ لِلْحَاكِمِ» (٢/ ٥٨٨).
(٢) «فَتْحُ الْبَارِي لِابْنِ حَجَرٍ» (٤/ ٣٩).
(٣) «تَفْسِيرُ جُزْءِ عَمَّ لِلشَّيخِ مُسَاعِدَ الطَّيَّارِ» (ص٢٨٣)، (التَّفْسِيرُ الْعَقَدِيُّ لِجُزْءِ عَمَّ ص ٨٣).
(٤) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١١٠).
(٥) «الْهِدَايَةُ إِلَى بُلُوغِ النِّهَايَةِ» (١٢/ ٨٠٦٠).

* **وَالْآخَـرُ**: مَـا الَّـذِي أَكْفَـرَهُ، أَيْ: أَيُّ شَيْءٍ أَكْفَـرَهُ؟ عَـلَى وَجْـهِ الِاسْـتِفهَامِ، قَالَـهُ السُّـدِّيُّ وَيَحْيَـى بْـنُ سَـلَامٍ.

* **الثَّالِثُ**: مَا أَلْعَنَهُ، قَالَهُ قَتَادَةُ[1].

قَاعِـدَةٌ: وَعَـادَةُ الْعَـرَبِ إِذَا تَعَجَّبُـوا مِـنْ شَيْءٍ قَالُـوْا قَاتَلَـهُ اللهُ مَـا أَحْسَـنَهُ، وَأَخْـزَاهُ اللهُ مَـا أَظْلَمَـهُ[2].

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ يَقُـولُ تَعَـالَى ذِكْـرُهُ: مِـنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَـقَ الْإِنْسَـانَ الْكَافِـرَ رَبُّـهُ حَتَّـى يَتَكَـبَّرَ، وَيَتَعَظَّـمَ عَـنْ طَاعَـةِ رَبِّـهِ وَالْإِقْـرَارِ بِتَوْحِيـدِهِ، ثُـمَّ بَـيَّنَ -جَـلَّ ثَنَـاؤُهُ- الَّـذِي مِنْـهُ خَلَقَـهُ[3].

۞ **وَقَـالَ ابْـنُ عَطِيَّـةَ**: اسْـتِفْهَامٌ عَـلَى مَعْنَـى التَّقْرِيـرِ عَـلَى تَفَاهَـةِ الـشَّيْءِ الَّـذِي خَلَـقَ الإِنْسَـانُ مِنْـهُ[4].

﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾

أَتَنْسَى خَلْقَكَ يَا ابْنَ آدَمَ؟ وَقَدْ ذَكَّرَ اللهُ الإِنْسَانَ بِهَذِه الْحَقِيقَةِ فِي غَير مَوْضِعٍ: قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ١٣]، وَقَـــالَ: مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ [الإِنْسَان:٢] وَقَالَ: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ [القِيَامَة: ٣٧].

(١) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١١٠)، «تَفْسِيرُ الْـمَاوَرْدِيِّ، النُّكَتُ وَالْعُيونُ» (٦/ ٢٠٥).
(٢) «تَفْسِيرُ الْـماورْدِيِّ، النُّكَتُ وَالْعُيونُ» (٦/ ٢٠٥).
(٣) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١١١).
(٤) «تَفْسِيرُ ابْنِ عَطِيَّةَ، الْمُحَرَّرُ الْوَجِيزُ فِي تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ» (٥/ ٤٣٨).

(نَطَفَ) النُّونُ وَالطَّاءُ وَالْفَاءُ أَصْلَانِ أَحَدُهُمَا نُدُوَّةٌ وَبَلَلٌ، ثُمَّ يُسْتَعَارُ وَيُتَوَسَّعُ فِيهِ، والنُّطْفَةُ: الْماءُ الصَّافِي، ويُعَبَّرُ بِهَا عَنْ مَاءِ الرَّجُلِ[1].

قَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: «عَجَبًا لِابْنِ آدَمَ يَتَكَبَّرُ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ مَجْرَى الْبَوْلِ مَرَّتَيْنِ»[2].

وَقَالَ الْحَسَنُ: عَجَبًا لِابْنِ آدَمَ، يَغْسِلُ الْخُرْءَ بِيَدِهِ فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَتَكَبَّرُ! يُعَارِضُ جَبَّارَ السَّمَاوَاتِ[3].

﴿خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾

خَلَقَهُ فَسَوَّاهُ، كَمَا قَالَ: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾، وَقَالَ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾.

قَالَ الرَّاغِبُ: إِشَارَةٌ إِلَى مَا أَوْجَدَهُ فِيهِ بِالْقُوَّةِ، فَيَظْهَرُ حَالًا فَحَالًا إِلَى الْوُجُودِ بِالصُّورَةِ[4].

وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: أَحْوَالًا: نُطْفَةً تَارَةً، ثُمَّ عَلَقَةً أُخْرَى، ثُمَّ مُضْغَةً، إِلَى أَنْ أَتَتْ عَلَيْهِ أَحْوَالُهُ، وَهُوَ فِي رَحِمِ أُمِّهِ ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ يَقُولُ: ثُمَّ يَسَّرَهُ لِلسَّبِيلِ، يَعْنِي لِلطَّرِيقِ[5].

(١) «مَقَايِيسُ اللُّغَةِ» (٥/ ٤٤٠)، «الْمُفْرَدَاتُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ» (ص٨١١).
(٢) «التَّوَاضُعُ وَالْخُمُولِ لِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا» (ص٢٥١).
(٣) «تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ» (٦/ ٣٤٦).
(٤) «الْمُفْرَدَاتُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ» (ص٦٥٩).
(٥) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١١١).

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾

السَّبِيلُ: الطَّرِيقُ الَّذِي فِيهِ سُهُولَةٌ، وَجَمْعُهُ: سُبُلٌ، قَالَ: ﴿لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[الزُّخْرُف: ٣٧]، يَعْنِي بِهِ طَرِيقَ الْحَقِّ؛ لَأَنَّ اسْمَ الجِنْسِ إِذَا أُطْلِقَ، يَخْتَصُّ بِمَا هُوْ الْحَقُّ، وَعَلَى ذَلِكَ: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾، وَيُسْتَعمَلُ السَّبِيلُ لِكُلِّ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى شَيءٍ، خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا[1].

قَوْلُهُ (السَّبِيل) فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ:

* **أَحَدُهَا**: خُروجُهِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ، قَالَهُ ابنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةُ والضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ، وَقَتَادَةُ.

وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: الأَوْلَى فِي ذَلِكَ عِنْدِي بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: الطَّرِيقُ، وَهُوَ الْخُرُوجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَسَّرَهُ، وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ أَشْبَهُهُمَا بِظَاهِرِ الْآيَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْخَبَرَ مِنَ اللهِ قَبْلَهَا وَبَعْدَهَا عَنْ صِفَتِهِ خَلْقَهُ، وَتَدْبِيرِهِ جِسْمَهُ، وَتَصْرِيفِهِ إِيَّاهُ فِي الْأَحْوَالِ؛ فَالْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ أَوْسَطُ ذَلِكَ نَظِيرَ مَا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ[2]؛ فَقَبْلَهُ ذَكَرَ خَلْقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ وَانْتِقَالَهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ فِي الرَّحِمِ، فَوَجَبَ أَنْ يُتْبِعَهُ بِذِكْرِ خُرُوجِهِ مِنَ الرَّحِمِ؛ لِيَكُونَ الْكَلَامُ كُلُّهُ فِي مَعنًى وَاحِدٍ[3].

---

(١) «الْمُفْرَداتُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ» (ص٣٩٥).

(٢) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١١٣).

(٣) «الهِدَايةُ إِلَى بِلُوغِ النِّهَايةِ» (١٢/ ٨٠٦١).

۞ **وَقَالَ السَّمْعَانِيُّ:** أَكْثَرُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ هُوَ الْخُرُوجِ مِنَ الرَّحِمِ[١].

۞ **وَقَالَ ابْنُ جُزَيٍّ:** هَذَا أَرْجَحُ؛ لِعَطْفِهِ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾[٢].

* **الثَّانِي:** سَبِيلُ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، وَكَقَوْلِ رَبِّنَا: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[٣].

* **الثَّالِثُ:** سَبِيلُ الْهُدَى وَالضَّلَالَةِ، قَالَهُ الْحَسَنُ، وَهَذَا كَالَّذِي قَبْلَهُ.

* **الرَّابِعُ:** سَبِيلُ مَنَافِعِهِ وَمَضَارِّهِ[٤].

۞ **وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ طَاهِرٍ:** يَسَّرَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ مَا خَلَقَهُ لَهُ، وَقَدَّرَهُ عَلَيْهِ. وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ ﷺ: «اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[٥].

۞ **وَعَنْ عَلِيٍّ قَالَ:** كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جِنَازَةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ، فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ

---

(١) «تَفْسِيرُ السَّمْعَانِيِّ» (٦/ ١٥٩).
(٢) «تَفْسِيرُ ابْنِ جُزَيٍّ، التَّسْهِيلُ لِعُلُومِ التَّنْزِيلِ» (٢/ ٤٥٣).
(٣) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ، جَامِعُ الْبَيَانِ ط هَجَرَ» (٢٤/ ١١٢).
(٤) «تَفْسِيرُ الْمَاوَرْدِيِّ، النُّكَتُ وَالْعُيُونُ» (٦/ ٢٠٦).
(٥) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» (٦/ ١٧١)، «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» (٤/ ٢٠٤٠)، «تَفْسِيرُ الثَّعْلَبِيِّ» (٢٨/ ٤٢٩).

النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ، فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [اللَّيْل: ٦] الآيَةَ[١].

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾

أَقْبَرَهُ أَيْ: جَعَلَ لَهُ مَكَانًا لِيُقْبَرَ فِيهِ، وَمَكَانُ الْقُبُورِ يُسَمَّى مَقْبَرَةٌ وَمَقْبُرَةٌ[٢].

قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ:

* **أَحَدُهُمَا**: جَعَلَه ذَا قَبْرٍ يُدْفَنُ فِيهِ، قَالَهُ الطَّبَرِيُّ[٣].

* **الثَّانِي**: جَعَلَ مَنْ يَقْبُرُهُ وَيُوَارِيهِ، قَالَهُ يَحْيَى بنُ سَلَّامٍ[٤].

قَالَ الفَرَّاءُ: جَعَلَهُ مَقْبُورًا، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِمَّنْ يُلْقَى لِلسِّبَاعِ وَالطَّيْرِ، وَلَا مِمَّنْ يُلْقَى فِي النَّوَاوِيسِ؛ فَالْقَبْرُ مِمَّا أُكْرِمَ بِهِ الـمُسْلِمُ[٥]، وَفِي هَذِهِ الآيَةِ

(١) «صَحِيحُ الْبُخَارِيّ» (٦/ ١٧١)، «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» (٤/ ٢٠٤٠).
(٢) «مَقَايِيسُ اللُّغَةِ» (٥/ ٤٨).
(٣) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ، جَامِعُ الْبَيَانِ ط هَجَر» (٢٤/ ١١٣).
(٤) «تَفْسِيرُ الْـمَاوَرْدِيِّ، النُّكَتُ وَالْعُيونُ» (٦/ ٢٠٦).
(٥) «مَعَانِي الْقُرْآنِ لِلْفَرَّاءِ» (٣/ ٢٣٧).

وجُوبُ دَفْنِ الْـموتَى[١].

وَأَشَارَ إِلَى إِيجَابِ الْمُبَادَرَةِ إِلَى التَّجْهِيزِ بِالْفَاءِ الْمُعَقِّبَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أَيْ: جَعَلَ لَهُ قَبْرًا فَغَيَّبَهُ فِيهِ وَأَمَرَ بِدَفْنِهِ؛ تَكْرِمَةً لَهُ وَصِيَانَةً عَنِ السِّبَاعِ.

وَالْإِقْبَارُ: جَعْلُكَ لِلْمَيِّتِ قَبْرًا وإِعْطَاؤُكَ الْقَتِيلَ لِأَهْلِهِ لِيَدْفِنُوهُ، وَالْـمعنَى: الِامْتِنَانُ بِأَنَّهُ جَعَلَ لِلْإِنْسَانِ مَوْضِعًا يَصْلُحُ لِدَفْنِهِ وَجَعْلِهِ بَعْدَ الْـموْتِ، بِحَيْثُ يُتَمَكَّنُ مِنْ دَفْنِهِ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ يَتَفَتَّتُ مَعَ النَّتَنِ وَنَحْوِهِ مِمَّا يُمْنَعُ مِنْ قُرْبَانِهِ، أَوْ جَعَلَهُ بِحَيْثُ يُتَهَاوَنُ بِهِ فَلَا يُدْفَنُ؛ كَبَقِيَّةِ الْحَيَوَانَاتِ؛ فَقَدْ عُرِفَ بِهَذَا أَنَّ أَوَّلَ الْإِنْسَانِ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وَآخِرَه جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ يَحْمِلُ الْعُذِرَةَ، فَمَا شَرَّفَهُ بِالْعِلْمِ إِلَّا الَّذِي أَبْدَعَهُ وَصَوَّرَهُ، وَذَلِكَ مُوجِبٌ لِأَنْ يَشْكُرَهُ لَا أَنْ يَكْفُرَهُ[٢].

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ﴾: وَقْتَمَا شَاءَ ﴿أَنشَرَهُۥ﴾: أَحْيَاهُ بَعْدَ مَوْتِهِ.

ثُمَّ إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْشَرَهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ وَأَحْيَاهُ، يُقَالُ: أَنْشَرَ اللهُ الْـميِّتَ، بِمَعْنَى: أَحْيَاهُ[٣].

ولَمَّا كَانَتْ مُدَّةُ الْبَرْزَخِ طَوِيلَةً، وَكَانَ البَعْثُ أَمْرًا مُحَقَّقًا غَيرَ مَعْلُومِ الْوَقْتِ بِالْعَينِ بِغَيرِه تَعَالَى، عَبَّرَ عَنِ الْـمعَانِي الثَّلَاثَةِ بِأَدَاتَي التَّرَاخِي

(١) «الإِكْلِيلُ فِي اسْتِنْبَاطِ التَّنْزِيل» (ص٢٨١).
(٢) «نَظْمُ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الْآيَاتِ وَالسُّوَرِ» (٢١/ ٢٦٢).
(٣) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ، جَامِعُ الْبَيَانِ ط هَجَرَ» (٢٤/ ١١٤).

وَالتَّحَقُّقِ فَقَالَ: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ﴾[1].

ثُمَّ قَالَ اللهُ لَه تَهْدِيْدًا: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ وَفِيهِ قَوْلَانِ:

* **أَحَدُهُمَا**: أَنَّه الْكَافِرُ، لَمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرَ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالإِيمَانِ، قَالَهُ يَحْيَى بْنُ سَلَّامٍ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَفِ بِالْمِيثَاقِ الَّذي أَخَذَه اللهُ عَلَيْهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَاف:١٧٢].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا أُخْبِرَ بِالنُّشُورِ قَالَ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٠] رُبَّمَا يَقُولُ قَدْ قَضَيْتُ مَا أُمِرْتُ بِهِ، فَقَالَ: كَلَّا لَمْ يَقْضِ شَيْئًا بَلْ هُوَ كَافِرٌ بِي وَبِرَسُولِي، وَقَالَ الْحَسَنُ: أَيْ: حَقًّا لَمْ يَقْضِ: أَيْ: لَمْ يَعْمَلْ بِمَا أُمِرَ بِهِ[2].

* **الثَّانِي**: أَنَّه عَلَى الْعُمُومِ فِي الْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ[3]؛ فَالْمُسْلِمُ لَا يَنْفَكُّ الإِنْسَانُ عَنْ نَوعِ تَقْصِيرٍ قَطّ؛ لِقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا»[4]، وعَلَى قَوْلِهِ ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ»[5].

---

(١) «نَظْمُ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الْآيَاتِ وَالسُّوَرِ» (٢١/ ٢٦٢).
(٢) «تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ» (١٩/ ٢١٩).
(٣) «تَفْسِيرُ الْماوَرْدِيِّ، النُّكَتُ وَالْعُيُونُ» (٦/ ٢٠٦).
(٤) «سُنَنُ ابْنِ مَاجَهْ» (١/ ١٨٤).
(٥) قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ مَسْعَدَةَ عَنْ قَتَادَةَ. «سُنَنُ التِّرْمِذِيِّ» (٤/ ٢٤٠).

۞ **وَعَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ:** لَا يَقْضِي أَحَدٌ أَبَدًا مَا افْتُرِضَ عَلَيْهِ، وَقَالَ الْحَارِثُ: كُلُّ مَا افْتُرِضَ عَلَيْهِ[1].

۞ **وَقَالَ مَكِّيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:** لَيْسَ الْأَمْرُ مَا يَقُولُ هَذَا الْإِنْسَانُ مِنْ أَنَّهُ قَدْ أَدَّى حَقَّ اللهِ فِي نَفْسِهِ وَمَا لَهُ، لَمْ يَقْضِ ذَلِكَ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ[2].

۞ **وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ:** الْوَقْفُ عَلَى ﴿كَلَّا﴾ قَبِيحٌ، والْوَقْفُ عَلَى ﴿أَمَرَهُۥ﴾ وَ﴿أَنشَرَهُۥ﴾ جَيِّدٌ، فَـ ﴿كَلَّا﴾ عَلَى هَذَا بِمَعْنَى حَقًّا[3].

وَهَذِهِ الْآيَةُ تَنْفِي الْغُرُورَ بِالطَّاعَةِ، فَكَيْفَ يَغْتَرُّ مَنْ لَا يَنْفَكُّ عَنِ التَّقْصِيرِ؟!

وَلَمَّا فَصَّلَ تَعَالَى النِّعَمَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِحُدُوثِهِ، تَأَثَرَهَا بِتَعْدَادِ النِّعَمِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِبَقَائِهِ[4].

---

(١) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١١٥).

(٢) «الهِدَايَةُ إِلَى بلُوغِ النِّهَايَةِ» (١٢/ ٨٠٦٢).

(٣) «تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ» (١٩/ ٢٢٠).

(٤) «تَفْسِيرُ القَاسِمِيِّ، مَحَاسِنُ التَّأْوِيلِ» (٩/ ٤٠٩).

فَقَالَ:

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾

قَوْلُهُ: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ فِيهِ وَجْهَانِ:

* **أَحَدُهُمَا**: إِلَى طَعَامِهِ الَّذِي يَأْكُلُهُ وَتَحْيَا نَفْسُهُ بِهِ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ؟!

وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: ذَهَبَ الجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ: فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَطْعُومَاتِهِ وَكَيْفَ يَسَّرَهَا اللهُ تَعَالَى لَهُ بِهَذِهِ الْوَسَائِطِ الْمَذْكُورَةِ مِنْ صَبِّ الْمَاءِ وَشَقِّ الأَرْضِ[1].

وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ: كَيْفَ قَدَّرَهُ رَبُّهُ، وَدَبَّرَهُ لَهُ لِيَكُونَ لَهُ آيَةً وَعِبْرَةً[2].

* **الْقَوْلُ الثَّانِي**: مَا يَخْرُجُ مِنْهُ أَيَّ شَيْءٍ كَانَ؟ ثُمَّ كَيْفَ صَارَ بَعْدَ حِفْظِ الْحَيَاةِ وَمَوْتِ الْجَسَدِ[3].

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: ذَهَبَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَابْنُ عَباسٍ وَالْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ: النَّظَرُ إِلَى طَعامِهِ إِذَا صَارَ رَجِيعًا؛ لِيَتَأَمَّلَ حَيْثُ تَصِيرُ

(١) «تَفْسِيرُ ابْنِ عَطِيَّةَ» (٥/ ٤٣٩).
(٢) «تَفْسِيرُ الثَّعْلَبِيِّ» (٢٨/ ٤٢٣).
(٣) «تَفْسِيرُ الْمَاوَرْدِيِّ، النُّكَتُ وَالْعُيونُ» (٦/ ٢٠٧).

عَاقِبَةُ الدُّنْيَا، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ يَتَفَانَى أَهْلُهَا وَتَسْتَدِيرُ رَحَاهَا[١].

۞ **وَعَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ سُفْيَانَ الْكِلَابِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ:** «يَا ضَحَّاكُ، مَا طَعَامُكَ؟» قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: اللَّحْمُ، وَاللَّبَنُ، قَالَ: «ثم يَصِيرُ إِلَى مَاذَا؟»، قَالَ: إِلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ، قَالَ: «فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنَ ابْنِ آدَمِ مَثَلًا لِلدُّنْيَا»[٢].

وَيُرْوى أَنَّ رَجَلًا أَضَافَه عَابِدٌ فَقَدَّمَ إِلَيهِ رَغِيفًا قِفَارًا فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَخْشَنَه فَقَالَ لَهُ: كُلْهُ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُنْعِمْ بِهِ وَكَمَّلَهُ حَتَّى سَخَّرَ فِيهِ ثَلَاثَمِائَةً وَسِتِينَ عَامِلًا؛ الْمَاءُ وَالرِّيحُ وَالشَّمْسُ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَلِكَ[٣].

۞ **وَعَنْ أَبِي الْوَلِيدِ قَالَ:** سَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ عَنِ الرَّجُلِ يَدْخُلُ الْخَلَاءَ، فَيَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهُ؟ قَالَ: يَأْتِيهِ الْملَكُ فَيَقُولُ: انْظُرْ إِلَى مَا بَخِلْتَ بِهِ إِلَى مَا صَارَ![٤].

۞ **وَقَالَ أَبُو قِلَابَةَ:** مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ: يَا ابْنَ آدَمَ، انْظُرْ إِلَى مَا بَخِلْتَ بِهِ إِلَى مَا صَارَ![٥].

(١) «تَفْسِيرُ ابْنِ عَطِيَّةٍ» (٥/ ٤٣٩).
(٢) «مُسْنَدُ أَحْمَدَ» (٢٥/ ٢٥ ط الرِّسَالَةِ).
(٣) «تَفْسِيرُ ابْنِ عَطِيَّةٍ» (٥/ ٤٣٩).
(٤) «تَفْسِيرُ الثَّعْلَبِيِّ» (٢٨/ ٤٣٩).
(٥) «تَفْسِيرُ الثَّعْلَبِيِّ» (٢٨/ ٤٣٩).

وَهَـذِهِ الْآيَـاتُ تُوَجِّـهُ الْقَلْـبَ الْبَـشَرِيَّ إِلَى أَمَـسِّ الْأَشْـيَاءِ بِـهِ وَهُـوَ طَعَامُـهُ وَطَعَـامُ حَيَوَانِـهِ، وَمَـا وَرَاءَ ذَلِـكَ الطَّعَـامِ مِـنْ تَدْبِـيرِ اللهِ وَتَقْدِيـرِهِ لَـهُ؛ كَتَدْبِـيرِهِ وَتَقْدِيـرِهِ فِي نَشْـأَتِهِ.[١] فَـكَأَنَّ اللهَ يَقُـولُ لَـهُ: إِنِ اسْـتَبْعَدْتَ الْبَعْـثَ وَاسْـتَغْرَبْتَهُ وَكَانَ عِنْـدَكَ شَـيْئًا عَجِيبًـا؛ فَانْظُـرْ إِلَى الْأَرْضِ؛ فَبِقُـدْرَتِي الَّتِـي أَحْيَيْـتُ بِهَـا الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا، أَخْرَجْـتُ النَّبَـاتَ مِنْهَـا؛ فَبِهَـا أَبْعَثُـكَ بَعْـدَ مَوْتِـكَ.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾

الْـمطَرُ مِنَ السَّحَابِ.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾

كَذَا الْـموْتُ ثُمَّ النُّشُـورُ بَعْدَ الْـموْتِ، تَكُـونُ فِي الْأَرضِ، ثُمَّ تَخْـرُجُ مِنْهَا كَمَا تَخْرُجُ هَـذِهِ الْحَبَّـةُ، فَاسْـتَدَلَّ اللهُ بِإِحْيَـاءِ النَّبَاتَاتِ عَـلَى إِحْيَاءِ الْإِنْسَـانِ: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ تَأْكُلُـهُ وتَدَّخِـرُهُ، ﴿وَعِنَبًا﴾ فَاكِهَـةً تَأْكُلُهَـا ﴿وَقَضْبًا﴾ الْقَضْـبُ: هُـوَ مَـا يُقَطَّعُ مَـرَّةً بَعْـدَ مَـرَّةٍ، تُقَطِّعُـهُ فَيَنْمُو؛ كَالْبَرْسِـيمِ، تُقَطِّعُـهُ فَيَنْمُو، وَسُـمِّي بِذَلِـكَ؛ لِقَضْبِهِ بَعْدَ ظُهُـورِهِ.[٢]

۞ وَقَالَ ابْنُ فَارِسٍ: الْقَافُ وَالضَّادُ وَالْبَاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى قَطْعِ الشَّيْءِ، وَالْقَضِيبُ: الْغُصْنُ، وَالْقَضْبُ: الرَّطْبَةُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا تُقْضَبُ.

---

(١) «فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ» (٦/ ٨٠٤).

(٢) «تَفْسِيرُ الْـماوَرْدِيِّ = النُّكَتُ وَالْعُيونُ» (٦/ ٢٠٧).

۞ وَعَنِ الْـحَسَنِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَضْبًا﴾ قَالَ: الْقَضْبُ: الْعَلَفُ[١].

۞ وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ: أَكْثَرُ أَهْلِ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ قَالُوا: الْقَضْبُ: الرَّطْبَةُ[٢].

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾

﴿وَحَدَآئِقَ﴾ جَمْعُ حَدِيقَةٍ، وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَاتُ مَاءٍ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ تَشْبِيهًا بِحَدَقَةِ الْعَيْنِ فِي الْهَيْئَةِ وَحُصُولِ الْـمَاءِ فِيهَا.[٣] ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النَّمل: ٦٠].

وَالْحَدِيقَةُ: هِيَ مَا كَانَ لَهَا سُورٌ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: «كُلُّ شَيْءٍ أُحِيطَ عَلَيْهِ مِنْ نَخِيلٍ أَوْ شَجَرٍ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُحَاطَةً، وَمَا لَمْ يُحَطْ فَلَيْسَ بِحَدِيقَةٍ»[٤].

۞ وَقَالَ الْخَلِيلُ: الْحَدِيقَةُ: أَرْضٌ ذَاتُ شَجَرٍ مُثْمِرٍ، وَالْحَدِيقَةُ مِنَ الرِّيَاضِ: مَا أَحْدَقَ بِهَا حَاجِزٌ أَوْ أَرْضٌ مُرْتَفِعَةٌ[٥].

﴿غُلْبًا﴾

وَالْأَغْلَبُ: الْغَلِيظُ الرَّقَبَةِ، يُقَالُ: رَجلٌ أَغْلَبُ، وامْرَأَةٌ غَلْبَاءُ، وَالْجَمْعُ: غُلْبٌ.

(١) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١١٦).
(٢) «التَّفْسِيرُ الْبَسِيطُ» (٢٣/ ٢٢٩).
(٣) «الْمُفْرَدَاتُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ» (ص٢٢٣).
(٤) «مَعَانِي الْقُرْآنِ لِلْفَرَّاءِ» (٢/ ٢٩٧) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١١٦).
(٥) «الْعَيْنُ» (٣/ ٤١).

۞ **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ:** الغُلْبُ: هَوَ الْغَلِيظُ الْمُلْتَفُ[١].

﴿وَفَٰكِهَةً﴾ لَكُمْ ﴿وَأَبًّا﴾ الأَبُّ: الْمرْعَى عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْجُمْهُورِ[٢]، لِأَنْعَامِكُم، ﴿مَّتَٰعًا﴾ هَذَا كُلُّهُ ﴿لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

۞ **وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الأَبِّ فَقَالَ:** أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ مَا لَا عِلْمَ لِي بِهِ[٣].

۞ **وعَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ:** ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ [عَبَس: ٢٨] قَالَ: فَكُلُّ هَذَا قَدْ عَرَفْنَاهُ فَمَا الْأَبُّ، ثُمَّ نَقَضَ عَصًا كَانَتْ فِي يَدِهِ فَقَالَ: «هَذَا لَعَمْرُ اللهِ التَّكَلُّفُ اتَّبِعُوا مَا تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ»[٤].

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَذَا يُشْبِهُ النَّهْيَ عَنْ تَتَبُّعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَالْبَحْثِ عَنْ مُشْكِلَاتِهِ قُلْتُ: لَمْ يَذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْقَوْمَ كَانَتْ أَكْبَرُ هِمَّتِهِمْ عَاكِفَةً عَلَى الْعَمَلِ، وَكَانَ التَّشَاغُلُ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ لَا يُعْمَلُ بِهِ تَكَلُّفًا عِنْدَهُمْ،

(١) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١١٧).
(٢) «تَفْسِيرُ ابْنِ جُزَيٍّ، التَّسْهِيلُ لِعُلُومِ التَّنْزِيلِ» (٢/ ٤٥٤).
(٣) «مُصَنَّفُ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ» (٦/ ١٣٦)، قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: رُوِيَ مِنْ طَرِيقَيْنِ يُقَوِّي أَحَدُهُمَا الْآخَرَ.
(٤) قَالَ الْحَاكِمُ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. «الْمُسْتَدرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ لِلْحَاكِمِ» (٢/ ٥٥٩).

فَأَرَادَ أَنَّ الْآيَةَ مُسَوَّقَةٌ فِي الِامْتِنَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ بِمَطْعَمِهِ وَاسْتِدْعَاءِ شُكْرِهِ، وَقَدْ عُلِمَ مِنْ فَحْوَى الْآيَةِ أَنَّ الْأَبَّ بَعْضُ مَا أَنْبَتَهُ اللهُ لِلْإِنْسَانِ؛ مَتَاعًا لَهُ أَوْ لِإِنْعَامِهِ، فَعَلَيْكَ بِمَا هُوَ أَهَمُّ مِنَ النُّهُوضِ بِالشُّكْرِ للهِ عَلَى مَا تَبَيَّنَ لَكَ، وَلَمْ يُشْكِلْ مِمَّا عَدَّدَ مِنْ نَعَمِهِ وَلَا تَتَشَاغَلْ عَنْهُ بِطَلَبِ مَعْنَى الْأَبِّ وَمَعْرِفَةِ النَّبَاتِ الْخَاصِّ الَّذِي هُوَ اسْمٌ لَهُ، واكْتَفِ بِالْمعْرِفَةِ الْإِجْمَالِيَّةِ إِلَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْوَقْتِ، ثُمَّ وَصَّى النَّاسَ بِأَنْ يُجْرُوا عَلَى هَذَا السَّنَنِ فِيمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ مِنْ مُشَكَّلَاتِ الْقُرْآنِ[1].

وَلَمَّا ذَكَرَ عَجَائِبَ الصُّنْعِ فِي الطَّعَامِ، وَكَانَ ذَلِكَ يُقْطَفُ فَيَعُودُ، وَلَا سِيَّمَا الْمرْعَى؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي عَلَيْهِ الْخَرِيفُ فَيَنْشَفُ، ثُمَّ يَتَحَطَّمُ مِنَ الرِّيَاحِ، وَيَتفرَّقُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يَصِيرُ تُرَابًا، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ الْمطَرَ فَيَجْمَعُهُ مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ صَارَ تُرَابًا، ثُمَّ يُنْبِتُهُ كَمَا كَانَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِثْلَ إِحْيَاءِ الْموْتَى سَوَاءً، فَتَحَقَّقَ لِذَلِكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَمْرِ الْإِنْشَارِ بَعْدَ الْإِقْبَارِ[2].

ولَمَّا ذَكَرَ أَمْرَ الْمعَاشِ؛ ذَكَرَ أَمْرَ الْمعَادِ؛ لِيَتزَوَّدُوا لَهُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَبِالْإِنْفَاقِ مِمَّا امْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ[3].

---

(١) «تَفْسِيرُ الزَّمَخْشَرِيِّ، الْكَشَّافُ عَنْ حَقَائِقِ غَوَامِضِ التَّنْزِيلِ» (٤/ ٧٠٥).
(٢) «نَظْمُ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الْآيَاتِ وَالسُّوَرِ» (٢١/ ٢٦٨).
(٣) «تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ» (١٩/ ٢٢٤).

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾

تَتَحدَّثُ الآيَاتُ عَنِ «الصَّاخَّة» يَوْمَ تَجِيءُ بِهَوْلِهَا، الَّذِي يَتَجَلَّى فِي لَفْظِهَا، كَمَا تَتَجلَّى آثَارُهَا فِي الْقَلبِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي يَذْهَلُ عَمَّا عَدَاهَا، وَفِي الْوجُوهِ الَّتِي تُحدِّثُ عَمَّا دَهَاهَا[١].

مَعْنَى الصَّاخَةِ فِي اللُّغَةِ:-

(صَخَّ) الصَّادُ وَالْخَاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى صَوْتٍ مِنَ الْأَصْوَاتِ، مِنْ ذَلِكَ الصَّاخَّةُ يُقَالُ: إِنَّهَا الصَّيْحَةُ تُصِمُّ الْآذَانَ، وَيُقَالُ: ضَرَبْتُ الصَّخْرَةَ بِحَجَرٍ فَسَمِعْتُ لَهَا صَخًّا[٢].

الصَّاخَّةُ: صَيْحَةٌ تَصُخُّ الآذَانَ فتُصِمُّهَا، وَيُقَالُ: هِيَ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ، يُقَالُ: رَمَاهُ اللهُ بِصَاخَّةٍ، أَيْ: بِدَاهِيَةٍ وَأَمْرٍ عَظِيمٍ[٣].

---

(١) «فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ» (٦/ ٨٠٤).
(٢) «مَقَايِيسُ اللُّغَةِ» (٣/ ٢٨١).
(٣) «الْعَيْنُ» (٤/ ١٣٥).

أَقْوَالُ الْـمُفَسِّرِينَ:-

وَالصَّاخَّةُ: صَيْحَةُ الْقِيَامَةِ، وَهِيَ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ تُصِمُّ عَنِ الدُّنْيَا، وَتُسْمِعُ أُمُورَ الْآخِرَةِ.

وتَصُخُّ الْأَسْمَاعَ: أَيْ تَصُمُّهَا فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا مَا يُدْعَى بِهِ لِلْإِحْيَاءِ، وَهِي صَرْخَةٌ عَظِيمَةٌ تُبَالِغُ فِي إِسْمَاعِ الْأَسْمَاعِ بِهَا حَتَّى تَكَادُ تَصُمُّهَا لِشِدَّتِهَا، سُمِّيَت بِذَلِكَ؛ لَأَنَّهَا تَصُخُّ الْأَسْمَاعَ، أَيْ: تُبَالِغُ فِي إِسْمَاعِها حتَّى كَادَتْ تَصُمُّهَا.[١] فَيَصْمتُ لَهَا كُلُّ شَيْءٍ[٢].

وَقِيلَ: هِيَ نَتِيجَةُ النَّفْخِ فِي الصُّوْرِ[٣].

وَهَذِهِ الصَّيْحَةُ كَأَنَّهَا تَطْعَنُ فِيهَا؛ لِقُوَّةِ وَقْعَتِهَا وَعَظِيمِ وَجْبَتِهَا، وَتَضْطَرُّ الْآذَانُ إِلَى أَنْ تَصِيخُ إِلَيْهَا أَيْ: تَسْمَعُ، وَأَصْلُ الصَّخِّ: الضَّرِبُ بِشَيْءٍ صَلْبٍ عَلَى مُصْمَتٍ[٤].

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾.

قَدَّمَ أَدْنَاهُم رُتْبَةً فِي الْحُبِّ وَالذَّبِّ، فَأَدْنَاهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّرَقِّي[٥].

(١) «تَفسِيرُ الثَّعْلَبِيِّ» (٢٨/ ٤٤٨).
(٢) «الهِدَايةُ إِلَى بلُوغِ النِّهَايةِ» (١٢/ ٨٠٦٧).
(٣) انْظُرْ: «تَفْسِيرُ ابْنِ جُزَيٍّ، التَّسْهِيلُ لِعُلُومِ التَّنْزِيلِ» (٢/ ٤٥٤).
(٤) «نَظْمُ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الْآيَاتِ وَالسّورِ» (٢١/ ٢٦٩).
(٥) «نَظْمُ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الْآيَاتِ وَالسّورِ» (٢١/ ٢٧٠).

۞ عَنْ سَوْدَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُبْعَثُ النَّاسُ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا يُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ، وَيَبْلُغُ شَحْمَةَ الْأُذُنِ» قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِّ، وَاسَوْءَتَاهُ يَنْظُرُ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ، قَالَ: «شُغِلَ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ»، وَتَلَا رَسُولُ اللهِّ ﷺ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عَبَسَ: ٣٥][1].

۞ وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ، يَقُولُ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ»[2].

۞ وعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ: «يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَكَيْفَ بِالْعَوْرَاتِ؟ قَالَ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧][3].

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾

كَانَ الْإِقْبَالُ عَلَيْهِمْ إِمَّا لِلنَّفْعِ أَوْ لِلِانْتِفَاعِ، وَكِلَاهُمَا مُنْتَفٍ؛ لِاشْتِغَالِهِ

(١) «الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحِينِ لِلْحَاكِمِ» (٢/ ٥٥٩) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ وَلَيْسَ هُوَ فِي الْمُسْنَدِ وَلَا فِي الْكُتُبِ. «النِّهَايَةُ فِي الْفِتَنِ وَالْملاحِمِ» (١/ ٣١٨).

(٢) «صَحِيحُ الْبُخَارِيّ» (٨/ ١٠٩) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» (٤/ ٢١٩٤).

(٣) «سُنَنُ التِّرْمِذِي ت بَشَّار» (٥/ ٢٩٠) «سُنَنُ النَّسَائِي» (٤/ ١١٤) وَقَالَ التِّرْمِذِي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

بِنَفْسِهِ عَنْ نَفْسِ غَيْرِهِ، وَعِلْمِهِ بِعَدَمِ نَفْعِهِ، وَتَأْخِيرُ الْأَحَبِّ فَالْأَحَبِّ لِلْمُبَالَغَةِ[(١)].

وَالْفِرَارُ يَكُونُ إِمَّا مِنْ طَلَبِ الْمُوَالَاةِ، أَوْ مِنْ طَلَبِ النُّصْرَةِ، أَوْ مِنَ الْمُسَاءَلَةِ؛ أَمَّا الْفِرَارُ مِنْ مُوَالَاتِهِ، يَدِلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾. [الْبَقَرَة: ١٦٦]، وَأَمَّا الْفِرَارُ مِنْ نُصْرَتِه، فَيَدُلُّ عَلَيْهِ: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الدُّخَان: ٤١]، وَأَمَّا الْمُسَاءَلَةُ، يَدُلُّ عَلَيْهَا قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [الْمعَارِج: ١٠]، وَكَذَلِك يَفِرُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهم عَنْ تَحَمُّلِ ثِقْلِ الْأَقْرِبَاءِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾، وَقَدْ كَانُوا يتعَاوَنُونَ فِي الدُّنيَا فِي تَحَمُّلِ الْأَثْقَالِ، فَيُخْبِرُ أَنَّهُم لَا يَتعَاوَنُونَ فِي ذَلِك الْيَوْمِ؛ بَلْ يَفِرُّونَ[(٢)].

﴿أَخِيهِ﴾ الَّذِي هُوَ نَصِيرُه فِي الدُّنْيَا، ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [الْقَصَصُ: ٣٥]، ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زَوْجَتُهُ ﴿وَبَنِيهِ﴾، وَلَمَّا كَانَ لِلْوَالِدِ إِلَى الْوَلَدِ مِنَ الْمحبَّةِ وَالْعَاطِفَةِ وَالإِبَاحَةِ بِالسِّرِّ وَالْمُشَاوَرَةِ فِي الْأَمْرِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِه، وَلِذَلِكِ يُضَيِّعُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ وَعُمْرَهُ[(٣)].

---

(١) «تَفْسِيرُ الْقَاسِمِي = مَحَاسِنُ التَّأْوِيلِ» (٩/ ٤١١).

(٢) «تَفْسِيرُ الْماتُرِيدِيِّ، تَأْوِيلَاتُ أَهْلِ السُّنَّةِ» (١٠/ ٤٢٨).

(٣) «نَظْمُ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الْآيَاتِ وَالسُّوَرِ» (٢١/ ٢٧٠).

📖 لِمَاذَا رَتَّبَ اللهُ هَذَا التَّرْتِيبَ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى؟

۞ قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «لَوْ عَكَسَهَا لَمَا كَانَ لِذِكْرِ الْبَقِيَّةِ فَائِدَةٌ».

۞ كَأَنَّهُ قَالَ: يَفِرُّ مِنْ أَخِيهِ، بَلْ مِنْ أَبَوَيْهِ، بَلْ مِنْ صَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ.

وَقِيلَ: يَفِرُّ مِنْهُم؛ حَذَرًا مِنْ مُطَالَبَتِهِمْ بِالتَّبِعَاتِ.

۞ يَقُولُ الْأَخُ: لَمْ تُوَاسِنِي بِمَالِكَ، وَالْأَبَوانِ: قَصَّرْتَ فِي بِرِّنَا، وَالصَّاحِبَةُ: أَطْعَمْتَنِي الْحَرَامَ وَفَعَلْتَ وَصَنَعْتَ، وَالْبَنُونَ: لَمْ تُعَلِّمْنَا وَلَمْ تُرْشِدْنَا، وَقِيلَ: أَوَّلُ مَنْ يَفِرُّ مِنْ أَخِيهِ: هَابِيلُ، وَمِنْ أَبَوِيهِ: إِبْرَاهِيمُ، وَمِنْ صَاحِبَتِهِ: نُوحٌ وَلُوطٌ، وَمِنَ ابْنِهِ: نُوحٌ.

﴿يُغْنِيهِ﴾: يَكْفِيهِ فِي الِاهْتِمَامِ بِهِ[١].

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَلَأَ الْهَمُّ قَلْبَهُ فَلَمْ يَعُدْ فِي قَلْبِهِ مُتَّسَعٌ لِهَمٍّ آخَرَ».

وَذَكَرَ الْوَاحِدِيُّ الْـمعْنَى نَفْسَه، وَكَذَا الْبِقَاعِيُّ.

۞ عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾: أَفْضَى إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ مَا يَشْغَلُهُ عَنِ النَّاسِ[٢].

---

(١) «تَفْسِيرُ الزَّمَخْشَرِيِّ، الْكَشَّافُ عَنْ حَقَائِقِ غَوَامِضِ التَّنْزِيلِ» (٤/ ٧٠٥).

(٢) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١٢٥).

وَهُوَ فِكْرُهُ فِي سَيِّئَاتِهِ وَخَوْفُهُ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ التَّخْلِيدِ فِي النَّارِ، وَالْمعْنَى: يُغْنِيهِ عَنِ اللِّقَاءِ مَعَ غَيْرِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِي أَمْرِهِ.(١)

﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا﴾ [الدُّخَان:٤١]، ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾، وَهَذَا أَحْيَانًا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا، إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ مَهْمُومًا، قَدْ لَا يَرَى مَا أَمَامَهُ.

۝ **وَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ طَاهِرٍ الْأَبْهَرِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:** يَفِرُّ مِنْهُمْ إِذَا ظَهَرَ لَهُ عَجْزُهُمْ وَقِلَّةُ حِيلَتِهِمْ، إِلَى مَنْ يَمْلِكُ كَشْفَ تِلْكَ الْكُرُوبِ وَالْهُمُومِ عَنْهُ، وَلَوْ ظَهَرَ لَهُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا لَمَا اعْتَمَدَ عَلَى غَيْرِ رَبِّهِ، الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَتَمَكَّنَ مِنْ فُسْحَةِ التَّوَكُّلِ وَاسْتَرَاحَ فِي ظِلِّ التَّفْوِيضِ(٢).

وَكَمَا فَرَّ مِنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَفِرَّ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا إِذَا دَعَوْهُ لِمَعْصِيَةِ الله، وَإِذَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا لَا يَنْفَعُوهُ إِلَّا إِذَا شَاءَ اللهُ، وَفِي الْآخِرَةِ هُمْ أَوَّلُ النَّاسِ هُرُوبًا مِنْهُ، فَلِمَ يَعْصِ الله بِسَبَبِهِمْ وَلِأَجْلِهِمْ؟!

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَأْكِيدٌ عَلَى أَنَّ النَّفْعَ وَالضَّرَّ مِنَ الله فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِذَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَعَلَّقَ الْقَلْبُ بِغَيْرِهِ.

ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ مَآلَاتِ النَّاسِ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾.

أَسْفَرَ الصُّبْحُ إِذَا أَضَاءَ، وُجُوهٌ مُضِيئَةٌ كَالْقَمَرِ، مَشْرِقَةٌ مُضِيئَةٌ.

---

(١) «تَفْسِيرُ ابْنِ عَطِيَّةَ، الْمُحَرَّرُ الْوَجِيزُ فِي تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ» (٥/ ٤٤٠).

(٢) «تَفْسِيرُ الثَّعْلَبِيِّ» (٢٨/ ٤٤٩).

۞ **وَقَالَ الْفَرَّاءُ:** مُشْرِقَةٌ مُضِيئَةٌ، وَإِذَا أَلْقَتِ الْمرْأَةُ نِقَابَهَا قِيلَ سَفَرَتْ فَهِيَ سَافِرٌ[(١)].

مُضِيئَةٌ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ أَوْ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ[(٢)]، وَأَشْرَفُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: أَضَاءَتْ لَمَّا رَأَتْ رَبَّهَا.

۞ **وَقَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ:** مِنْ طُولِ مَا اغْبَرَّتْ فِي سَبِيلِ اللهِ[(٣)].

وَهَذِهِ الْآيَةُ بِشَارَةٌ كَبِيرَةٌ لِلْمُؤْمِنِ؛ لِأَنَّهُ لَا مَحَالَةَ حَاصِلٌ لَهُ هَذَا الْإِخْبَارُ[(٤)].

۞ **يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ:** وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُشْرِقَةٌ مُضِيئَةٌ، وَهِيَ وُجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، يُقَالُ: أَسْفَرَ وَجْهُ فُلَانٍ: إِذَا حَسُنَ، وَمِنْهُ أَسْفَرَ الصُّبْحُ: إِذَا أَضَاءَ، وَكُلُّ مُضِيءٍ فَهُوَ مُسْفِرٌ، وَأَمَّا سَفَرٌ بِغَيْرِ أَلِفٍ؛ فَإِنَّمَا يُقَالُ لِلْمَرْأَةِ إِذَا أَلْقَتْ نِقَابَهَا عَنْ وَجْهِهَا أَوْ بُرْقُعَهَا، يُقَالُ: قَدْ سَفَرَتِ الْمرْأَةُ عَنْ وَجْهِهَا، إِذَا فَعَلَتْ ذَلِكَ؛ فَهِيَ سَافِرَةٌ[(٥)].

---

(١) «مَعَانِي الْقُرْآنِ لِلْفَرَّاءِ» (٣/ ٢٣٩).
(٢) «تَفْسِيرُ النَّسَفِي = مَدَارِكُ التَّنْزِيلِ وَحَقَائِقُ التَّأْوِيلِ» (٣/ ٦٠٤).
(٣) «تَفْسِيرُ الثَّعْلَبِيِّ» (٢٨/ ٤٥٦).
(٤) «النُّكَتُ الدَّالَّةُ عَلَى الْبَيَانِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْأَحْكَامِ» (٤/ ٤٧٩).
(٥) «سُنَنُ أَبِي دَاوِدَ ت الأرنؤوط» (١/ ٤٢١).

﴿ضَاحِكَةٌ﴾

فَاجْتَمَعَ الضَّحِكُ مَعَ السُّرُورِ؛ فَالْقَلْبُ اطْمَأَنَّ وَسُرَّ، وَالْوَجْهُ اسْتَنَارَ مِنَ الفَرَحِ، وَيَتَطَلَّعُونَ إِلَى الْمزِيدِ.

﴿ضَاحِكَةٌ﴾

يَقُولُ: ضَاحِكَةٌ مِنَ السُّرُورِ بِمَا أَعْطَاهَا اللهُ مِنَ النَّعِيمِ وَالْكَرَامَةِ ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ لِمَا تَرْجُو مِنَ الزِّيَادَةِ[١].

عَنْ بُرَيْدَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَشِّرِ الْمشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيامَةِ»[٢] هَذَا هُوَ النُّورُ التَّامُّ، وَضِدُّهُ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ غِبَارٌ ودُخَانٌ، الْغَبَرَةُ: صِفَةٌ مِنَ الغُبَارِ[٣].

﴿تَرْهَقُهَا﴾ أَيْ: تَغْشَاهَا وَتَعْلُوهَا ﴿قَتَرَةٌ﴾ يَعْلُوهَا سَوَادٌ، عَلَيْهَا سَوَادٌ وَغُبَارٌ وَدُخَانٌ.

(قَتَرَ) الْقَافُ وَالتَّاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَجْمِيعٍ وَتَضْيِيقٍ[٤].

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: الْغَبَرَةُ: غُبَارٌ يَعْلُوهَا، وَالْقَتَرَةُ سَوَادٌ، فَيَعْظُمُ

(١) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١٢٧).
(٢) «سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ ت الأَرْنَؤُوط» (١/ ٤٢١).
(٣) «دَرْجُ الدُّرَرِ فِي تَفْسِيرِ الآيِ وَالسُّوَرِ ط الحِكْمَةِ» (٤/ ١٧٠١).
(٤) «مَقَايِيسُ اللُّغَةِ» (٥/ ٥٥).

قُبْحُهَا بِاجْتِمَاعِ الْغُبَارِ وَالسَّوَادِ.

📖 مَنْ هَؤُلَاءِ يَا رَبُّ؟

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ جَمَعَ اللهُ إِلَى السَّوَادِ الْغَبَرَةَ، كَمَا جَمَعُوا الْكُفْرَ إِلَى الْفُجُورِ.

۞ وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ قَالَ: هَذِهِ وُجُوهُ أَهْلِ النَّارِ؛ قَالَ: وَالْقَتَرَةُ مِنَ الْغَبَرَةِ، وَقَالَ: وَهُمَا وَاحِدٌ، قَالَ: فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ الْقَتَرَةَ: مَا ارْتَفَعَ فَلَحِقَ بِالسَّمَاءِ، وَرَفَعَتْهُ الرِّيحُ، تُسَمِّيهِ الْعَرَبُ الْقَتَرَةَ، وَمَا كَانَ أَسْفَلَ فِي الْأَرْضِ فَهُوَ الْغَبَرَةُ[١].

۞ وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحَاقَّة: ١٤] قَالَ: «يَصِيرَانِ غَبَرَةً عَلَى وُجُوهِ الْكُفَّارِ لَا عَلَى وُجُوهِ الْمُؤْمِنِينَ»، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عَبَسَ: ٤١][٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمُ الْكَفَرَةُ بِاللهِ، كَانُوا فِي الدُّنْيَا الْفَجَرَةَ فِي دِينِهِمْ، لَا يُبَالُونَ مَا أَتَوْا بِهِ مِنْ مَعَاصِي اللهِ وَرَكِبُوا مِنْ مَحَارِمِهِ، فَجَزَاهُمُ اللهُ بِسُوءِ أَعْمَالِهِمْ مَا أَخْبَرَ بِهِ عِبَادَهُ[٣].

---

(١) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١٢٧).

(٢) «الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ لِلْحَاكِمِ» (٢/ ٥٥٩) وَقَالَ: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ».

(٣) «تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ١٢٧).

۞ **قَالَ الْبِقَاعِيُّ**: وَهُمْ فِي الْأَغْلَبِ الْمُتْرَفُونَ الَّذِينَ يَحْمِلُهُمْ غِنَاهُمْ عَلَى التَّكَبُّرِ وَالْأَشَرِ وَالْبَطَرِ، فَلِجَمْعِهِمْ بَيْنَ الْكَفْرِ وَالْفُجُورِ؛ جُمِعَ لَهُمْ بَيْنَ الْغَبَرَةِ وَالْقَتَرَةِ[(١)].

وَصِلَةُ أَوَّلِ السُّورَةِ بِآخِرِهَا أَنَّ مَنِ اسْتَغْنَى فِي الدُّنْيَا؛ فَهُوَ مِنَ الْكَفَرَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ يَعْلُو وَجْهَهُ الْغُبَارُ.

---

(١) «نَظْمُ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الْآيَاتِ وَالسُّوَرِ» (٢١/ ٢٧٣).